J A D A L

رواية

مكتبة ياسمين

هيڤا نبي

ثوب أزرق بمقاس واحد

جدل

منشورات جدل
JADAL PUBLISHING

H A I F A A   N A B I

جدل

هيفا نبي

ثوب أزرق بمقاس واحد

أفترضُ أنّ عالم الدّاخل هو استعاضة عن فقداننا للعالم الخارجيّ. القاعدة تنصّ على أن نعيش في الخارج وللخارج، أن نفكّر ونحن نسير، أن نتأمّل ونحن نتحرك، أن نبني حياتنا ونحن نتفاعل مع أشيائها ببساطة، مع الحجر والشّجر والعشب والخشب والحديد مع الأرصفة والأبنية والنّاس المختلفين. أمّا الاستثناء فهو أن نضطرّ لاستعاضة ما نُحرم منه في الخارج بالعالم الداخليّ، عالم الجدران المغلقة والأفكار والخيالات والهُلام الممتدّ. ولذا يُسجن المذنبون. لو لم يكن الداخل حرمانًا لما عُوقب المذنبون والمجانين والمعتوهون والمشوهون به. كلّ ما نودّ دفعه إلى الخلف نحتجزه ونغلق عليه، وهكذا دُفعت النّساء إلى الخلف على الدّوام. أُحتُجزن بدوافع كثيرة في الداخل، ثم وُصمن بالضيق والمحدودية. ترتيبات العالم أسهل مما نعتقد: نحتجزك ونوسمك من ثمّ بالضّعف والهشاشة، بل نجعلك تهمة إن حلا لنا ذلك.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

9 789921 774634

JADAL.PUBLISHING

JADALBOOKSTORE.COM

J A D A L

رواية

هيڤا نبي

ثوب أزرق بمقاس واحد

-مذكرات من العام الفائت-

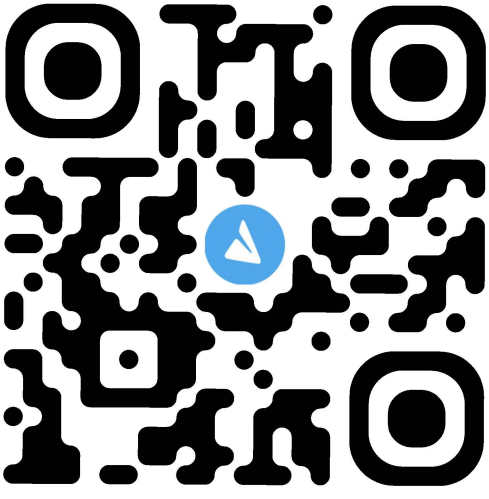

مكتبة ياسمين على تلجرام

ثوب أزرق بمقاس واحد

-مذكرات من العام الفائت-

هيڤا نبي

الطبعة الأولى: أغسطس 2022

ISBN: 978-9921-774-63-4

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

جدل

منشورات جدل©
JADAL PUBLISHING

دولة الكويت
المملكة العربية السعودية
جمهورية مصر العربية

(+965) 99900912
(+966) 554658820
WWW.JADALBOOKSTORE.COM
JADAL.PUBLISHING
JADALBOOKSTORE

«لم يكن ليخطئ! لقد تحدّى الكون المتماسك، المتلاحم، شديد التضافر أن يهزّ إيمانه العشقيّ والفنيّ! لن يُرغمَ على رؤية الأشياء كما يريد كل شيءٍ وكل شخصٍ أن يراها، مهروسةً وممتزجةً في حساءٍ واحدٍ لا شكل له! لن يستسلم!»

ألبرتو مانغويل: عاشق مولع بالتفاصيل

-اكتبي ذاتك. ذاتك هي ذات العالم الذي يرفض الاعتراف بنفسه-

طفل الحب

ممدّدة على السرير، سريرٌ كبيرٌ وقديم، أتسلّى بالتحرك فوقه وسماع صريره. أمرّر يدي على جسدي، بطني ككيسٍ قماشي مُفرّغ والتجعدات فيه لا تُعد. ألتفتُ إلى يميني، أتأمل الطفلة في فراشها، تبدو متورّدة من الشمس وهادئة كما هي في كل الصباحات.

آنذاك كنت أيضًا ممدّدة على السرير، بعد جولة من اللذة تحوّلتُ إلى شهرزاد في حضرة ملكٍ ما عادَ يرتهن حياةً بحكاية. نطقت شهرزاد:

«يُحكى أن امرأة كانت تتعرض كل ليلة للضرب من زوجها، وفي الصباح تخرج مُكابِرةً لجاراتها وأم زوجها وتقول لهن: «ضربُ الرجال حنّة على يد النساء وشعرهنّ». لم تكن الحنّاء قد وصلت تلك الأرض آنذاك، لكن النساء تعرّفن عليها من خلال حديث المرأة على أنها شيءٌ من الجمال مرافق للذة والألم. مع الوقت كبر وهمُ الحنّاء لديهن، فلجأن إلى أزواجهن مطالباتٍ به. وبينما كان الرجال يضربون بوتيرةٍ ثابتة خرج من بينهم مَن لم يكن له قلب لضرب زوجته فاهتدى للحناء وحملها لزوجته والأخريات. مذ ذاك والنساء يتزيّن بها دونما حرج».

قال لي بينما تلبّس هيئة المفكّر:

- جميلة هذه الحكاية! لكن المرأة تبدو فيها مثيرة للشفقة. لِمَ تدّعي أن الضرب حناء؟

- لئلّا تُلحِق ذُلّ الليل بذل النهار. أجبتهُ.

- وعِوض تقليص الذلِّ، نُضاعفه؟ وبدلاً من أن يكون فرديًا نصيّره جماعيًا؟

- ليس سهلاً أن نُظهر لأحدٍ كم نحن ضعفاء. لذا نحوّل الضعف غالبًا إلى جمال، إلى حناء مثلاً.

- هل ستكتبين شعرًا إن كنت تتألّمين بشدة؟

- ربما رواية.

وأطلقنا ضحكة، واهتز السرير!

كان هذا في يوم لقائنا الجسدي الأول. بعد أن عبّر عن إعجابه وانقباض قلبه من حكاية الحناء مالَ نحوي بنظرة مَن يستلذّ بالأذى وقال: «ما رأيك إذن بصفعةٍ قوية كالحنّاء؟»

قبل أن أتمكن من التعبير عن دهشتي، ناولني صفعةً على ردفيّ وألحقها بمداعباتٍ ناعمة كثيرة. كنا متمددين على السرير، والعالم في الخارج تحوّل فجأة إلى طفلٍ بريء يستجدي حبنا وعطفنا. أتذكّرُ أني قلت لنفسي يومها: «يا للحبِ كيف يحيلُ كل شي عداه رمادًا».

طفلُ الحب خرج إلى العالم، استقل بنفسه وها هو ينام في سريره بمفرده. أما الحب الذي ابتدعه فقد أدّى المهمّة وهرب مع أول فرصة سانحة. ربما هربَ من النافذة، النافذة التي صارت، منذ أن صار الحب طفلاً، بابًا كبيرًا للموت، أو ربما للنجاة والسكون.

ما بالها هذه النافذة؟

حسمت أمري لإخبار زوجي أن اتجاه هذه النافذة لا يعجبني. قلتها بآليةٍ حتى إن صوتي بدا مُستعارًا. نظر إليّ مستغربًا، وأضاف بلطف:

- هل يمكنكِ اقتراح اتجاهٍ آخر؟ مع العلم أن هذا الاتجاه هو الوحيد المُطلّ على الخارج.

قلتُ محاولةً إظهار الأمر كبديهة:

- أيُفترض أن تكون النافذة على الشارع على الدوام؟ في البيوت القديمة كان ثمة نوافذ عديدة تطلّ ببساطة على الغرف الأخرى، أو على الفسحة الداخلية للمنزل، فيما جدران المنزل الخارجية المطلّة على الشارع مُصمتة ومغلقة بشكلٍ كاملٍ.

لم يعلّق، فأضفت:

- في منزل طفولتي كانت بعض النوافذ مطلّة على الفناء الداخلي للدار وحوافها عريضة كفاية تزينها والدتي بأصص الورد. في بيت جدي وفي بيوت أصدقائي أيام طفولتي ساد هذا النموذج. كانت تلك النوافذ مكانًا ملائمًا لجلوس الأطفال ولعبهم وقد أوقعتُ ريحانات أمي مراتٍ عديدة ونشب شجارٌ طويلٌ إثرها.

صمتُّ قليلاً، شكّكت في انتباهه، لكني أكملت:

- وقديمًا لم تكن النوافذ بهذا الشكل حتى، بل عبارةً عن كوّة ضيقة للتهوية في الجدار من دون زجاج ومن دون أي تجميل، والآن انظر لمتطلّباتنا! نريدها مشهدًا أساسيًا في صدر الغرف كلها، إنها تكبر وتتضخّم على حساب الجدار، خذ مثالاً الأبراج الزجاجية في العالم المتقدّم، إنها...

أدركتُ أن حماستي مُفتعلة كأنّ أحدًا آخر يتحدث من خلالي. ليس عليّ سرد تاريخ النوافذ ومراحل تقدّمها المعماري لأُعلمه بانزعاجي منها.

سأل بسخرية بعد برهة:

- وكيف نجعل النوافذ داخلية في مثل هذه الشقق؟ وما فائدتها في هذه الحالة؟

كانت سخريته واضحة. لم ألتفت:

- لا أعرف. على سبيل المثال نافذة تطل على غرفة أخرى. لمثل تلك النوافذ ميزتها أيضًا.

كان كلامي عبثيًا فارغ المعنى.

منغمساً في لملمة ما تبقّى في الصحن من كبدة الدجاج المقلية بالزيت، سأل دون أن ينظر نحوي:

- وما هي ميزتها؟

بدا كأنه لا يتّخذ حوارنا بجديةٍ بعد. أعرفه حين يصبح جِديًا، يصبح عاجزًا تقريبًا عن إكمال حديثه. وعدا هذا يمكنه أن يستمر بالنقاش حتى الصباح.

دونما تفكير أجبت:

- فائدتها هي أنك تكون على كل حال في الداخل والخارج معًا. النافذة هي النافذة سواء أكانت مطلّة على الخارج أم الداخل، سواء أكانت مطلة على الطابق العشرين أم مرتفعة عن الأرض مترًا واحدًا فحسب.

لم يستجب ولم يبدِ أية ردة فعل. كان ما يزال منهمكًا بما تبقّى من الكبدة والخبز الذي تناثرت قطعٌ صغيرةٌ منه على حافة السرير. كنا قد تشاركنا صحن الكبدة معًا وقد رأيته يدفعُ ببعض القطع الكاملة نحوي بينما يكتفي هو بتلك التي ذابتْ أو تفتّتت أثناء طبخها. أثار شفقتي، فقد بدوتُ جاحدة دون أن تكون لي يدٌ في ذلك.

بقيت عبارتي الأخيرة بلا تعليق، لكني تذكرتُ أن ما قلته لم يكُ شيئًا، إني لم أدعُهُ للتواصل حتى. من ثم بدا أن جزئية الطابق العشرين وارتفاع النافذة مترًا عن الأرض لا شأن لهما بما قلتُه سابقًا. وفكرة «الخارج والداخل» هل أدركَ من الأساس ما أخفيه من ورائها؟

وددتُ لو أن ثمة طريقة لإفهامه لا تمر بباب الكلمات، دون كلام! ولقلة حيلتي أضفتُ بقلقٍ عجزت عن كتمانه:

- ليس الأمر أنه لا يُعجبني، بل إنه يزعجني، يخيفني.

التفت إليّ هذه المرة بتصميم واضح مُحاولاً فهم ما أعنيه. أعرف هذا النوع من النظرات، تشبه نظرةَ الأمهات اللبيبات: تريدك أن تُفصح أكثر دون أن تطالبك بالإفصاح مباشرة.

انتظر إيضاحًا مني، لكني تظاهرت بعدم إدراكي سبب جمود نظرته. بعد صمت اقترح إبدال غرفة نومنا:

- بإمكاننا نقل السرير والخزانة بسهولة إن بدا الأمرُ مزعجًا إلى هذا الحد، لدينا على كل حال غرفة فارغة وزائدة عن حاجتنا.

أعرف أنه لن يفعلها لكن اقتراحه هذا هو إحدى طرقه في حل المشكلات جميعها. تبدو الإمكانيات مع ديدار لا نهائية شرط ألّا تتحول إلى فعل. يستطيع أحيانًا أن يقترح أشياء غير معقولة وغير قابلة للتنفيذ حتى لمجرد الإيحاء بسيطرته على المشكلات التي تعترضه أو تعترضنا، يعتقدُ أنه يُرهب المشكلات بحلوله الغزيرة. ويجب عليّ الاعتراف أن الأمر ينجح في بعض الأحيان، حتى إن لم تُحل المشكلة في حد ذاتها.

فكرت باقتراحه الأخير ثم قررت -بيني وبين نفسي بالتأكيد- ألا إيضاحات أكثر. لا يمكنه فهم ما أقوله. استدرت نصف دائرة ومرّرتُ يدي على سرير طفلتي.

رُزقت منذ نحو أربعين يومًا بطفلة، هي بِكري. رُزقت بها بعد سنواتٍ من محاولات الإنجاب الفاشلة والكثير من الأدوية. لا أعرف لمَ عاندتُ وثابرتُ بالتهام كل تلك الأدوية رغم أنّي كنت ضد فكرة الإنجاب في حد ذاتها، خاصة بعد أن تراءت لي إمكانية تبني طفلٍ من دار الأيتام التي كنت أعمل فيها. لم أجرب حتى رفض فكرة محاولة الإنجاب، كانت أفكاري حول هذا الأمر تسبح في مكان، بينما أتصرف وفق آلية مدروسة وبسيطة ومُتفق عليها تتلخص في التالي: على كل امرأة أن تُنجب.

أسميتُها «ماف»، اسمٌ عمليٌّ وصغيرٌ وحازم. اخترت اسمها بعفوية كبيرة، ولأقلْ إنه فَرض نفسه عليَّ منذ اللحظة الأولى لعلمي بحملي

إياها، فقد شعرت أنها حقٌّ لي. في الكرديّة تعني كلمة «ماف» الحق، وكل كرديّ يشعر لدى سماعها أنها تمسّه شخصيًا، تعزّ الكلمة عليه كأنها أمه ألتي أنجبته. لا تتحرك ماف كثيرًا، تنام بهناء نهارًا وتستيقظ طوال الليل. يعينني ديدار في حملها والسهر عليها أحيانًا لكني لا أجد مساعدته مُرضية تمامًا.

حين دار بيننا الحديث السابق كان ديدار يهمُّ برفع الأطباق عن السرير، صحن من كبدة الدجاج المقلية بزيت الزيتون إلى جانب قليل من الخضار في صحنٍ عميق. يحاول ديدار مساعدتي فقد ضعُف جسدي إلى الدرجة التي أقعدتني السرير طوال فترة الحمل تقريبًا، وبطبيعة الحال لم يصبح جسدي المنهك أفضل حالًا بعد الولادة مباشرةً.

حين وضع ديدار الطعام على زاوية سريري قبل ذلك بوقتٍ قصير قال:

- خيرُ ما فعله قدوم ماف هو إتاحة الفرصة لي لتناول الكبدة كل يوم، يبدو أني سآكل الكبدة في هذه الفترة أكثر مما أكلت طوال ما سبق من حياتي. وأطلقَ ضحكةً بدت لي غايةً في البؤس.

لم أعقّب بحرف، عجزٌ عن الكلام يشلّني. نظرت إليه نظرةً وودت لو يفهمها: «أنت بعيد، أنت لا تفهم». لكني لا أصرح بما أفكر فيه بطبيعة الحال. لا يجب على المرء أن يُصرّح على الدوام بما يُفكر فيه، ليست كل أمور العقل مستساغة للسمع. هذا ما تعلّمته على الأقل.

كنتُ قد أكلت الكبدة مُرغمة -هكذا آكلها على الدوام- ذلك أن تناولها ليس خياري. أنهيتُ حصّتي دون أن تفارق نظرتي صحن الخضار.

- ما كان عليكَ وضع الخضار في صحنٍ عميق كهذا.

قلتُها وأنا أشعر بغضبٍ حقيقي فجائي من رؤية الخضار في الصحن العميق، وقبلها لم ألحظ سوء ذلك حتى.

توقف ديدار للحظة ربما ليستوعب حقيقة المشكلة، بينما كان غضبي يتوسع ليلملم ويحتضن في داخله مشاعر الخزي والحزن واليأس، كأن وضع الخضار في صحنٍ كهذا هو إساءةٌ تمسّني شخصيًا.

- ما الفرق؟ لا أهتم بهذا.

- لا تُقدم الخُضار في صحن كهذا. الصحن العميق مخصصٌ للحساء مثلًا.

- عندما تعودين لنشاطك بإمكانك توزيع الأدوار على صحونك كما تشائين.

سقط الصمتُ بيننا من جديد.

تتخلل كل أحاديثنا مؤخرًا فترات صمتٍ طويلة، نبدو بليدَين لدرجة أن أحدنا لا يدفعُ الآخر لاستئناف حديثه أو توضيح قوله. هذا ما يتبدى لي على الأقل.

خرج من الغرفة. يدي على سرير الطفلة، لم أحركها، بل تأملتها في جمودها، كانت يدي عاجزة عن حمل نفسها، وأنا من جهتي لم أعطها أوامر محدّدة. بقيت على تلك الحالة لبعض الوقت، الوقت الكافي ليحمل ديدار الأطباق إلى المطبخ ويغسلها، القرقعة القادمة من هناك توحي بذلك، وعاد بكأسين من الماء. رفعتُ رأسي وقلت بحِدّة:

- كنت أرغب في كأسٍ من اليانسون.

قال ضاحكًا:

- أوامرك تزداد حِدّةً. هل هذه هي نبرة الأمهات المستجدات؟

مجددًا نظرت إليه نظرة أزعجته. غادرني إلى غرفة المعيشة حاملًا كأس الماء. من هناك سمعت صوت مذيع الأخبار ينبئُ ببوادر هدنةٍ بين المتحاربين.

إن النظرة تفلتُ مني، الكلمة تفلتُ مني، الغضب يفلتُ مني، لم تعد لي سيطرة على شيء. وأعرف تمامًا إلى أين أتجه، إنها أنا مَن تقودُ الأمور إلى هذا المكان، أنا مَن تحشرُ الحوار في الزاوية كقطٍ صغير، لكن القط لن يبقى ساكنًا، سيخدش قدر استطاعته، وهكذا سيندلع شجارٌ بيننا. وأعرف أني أنا المُلامة، على الأقل المُلامة ظاهريًا، أما الأسباب الخفيّة، غير المباشرة، فمن يدري؟!

يُبدي ديدار سكونًا، أعرف أنها خيبة عابرة، لكني أتساءل ماذا يفعل ديدار بخيباته العابرة التي تتراكم مع الأيام، منذ أن عرضتُ عليه تبني طفلٍ من الميتم. أعرف أو أكاد أتنبأ بحجم وكمية الخيبات، لكني أعلم أيضًا أن ثمة شيئًا، أو أشياء لا يعرفها، ولن يتمكن من معرفتها يومًا.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

أخطاء النهار وحِكمة الليل

كما هي العادة في الليل كان عليّ توضيب أخطاء النهار.

فكّرتُ مستلقية إلى جواره بحوار منتصف الظهيرة هذا، سألتُ نفسي: «ما الذي دهاني لأحدّثه عن النافذة؟ هل توقّعتُ أنه سيزيحها بضربة يدٍ لينقلها للحائط الآخر؟»، «لمَ حدّثتهُ في أمرٍ لا يمكن إصلاحه أصلًا؟»، «لا بد أنه كان على حق حين أبدى ضيقه. على المرء طرحُ الأسئلة المنطقية وإثارة المواضيع التي يمكن الاستجابة لها!».

آه، لو فكرت بهذه الطريقة سأكف عن الكلام كله؛ فكل أسئلتي وكل مواضيعي تبدو لي خارج المنطق في الفترة الأخيرة.

كتبت هذا الكلام قبل أن أخلد إلى النوم، أشعر بحاجة لتدوين كل شيء، حتى أقل كلمة وأصغر حركة. حتى حواراتنا المجهضة وكلماتنا المبتورة تشي بخللٍ ما وعليّ تدوينها. رغبة الكتابة هذه لم أعتد عليها سابقًا، نبتت فجأة، رغبة شبيهة بمحاولة رؤية مضاعفة. أريد أن أرى، أن أفهم لِمَ بدا العالم شبحيًا فجأة؟!

في مقابل الرغبة في تدوين كل شيء أحثُّ نفسي على الحذر والاقتصاد في الكلام في المرّات المقبلة. لا شيء يُنجي سوى الاقتصاد في الكلام.

غالبًا وأنا أفكر تتجه نظرتي نحو النافذة. يحدث الأمر بطريقةٍ آلية لا يمكنني تجنبها، ولكني لا أهاب النوافذ وديدار في البيت. أنصت لصوت العالم في الخارج وأرى الليل كما لم أره من قبل عبر النافذة، ساكنٌ غامضٌ مخيفٌ كأنه بطن حيوانٍ نافق. أحوّل نظرتي إلى السقف فأرى ارتسام ضوءٍ دافئ يتراقص عليه، لا بد أنه انعكاس ضوء سيارة في الأسفل. لا أعرف لِمَ تبدو انعكاسات أضواء السيارات دافئة وحميمية في الليل.

أوضب الأوراق، أخبئها تحت فراشي، وأحتفظ بالقلم بالقرب من رأسي. أضع رأسي على الوسادة والنافذة تضيء في رأسي كالثقب الأبيض، تحمل إليّ عالمًا لم أعتد عليه، عالمًا من الثقل والغموض إلى الدرجة التي تُشعرني أنني ولدتُ للتو.

على يساري ديدار النائم والنافذة المشرعة على الظلام وعلى يميني سرير الطفلة، وأنا بينهما أتخبّط كأني في مدينة ألعابٍ مهجورةٍ.

محاولة قفز

ذاك الصباح حين هممتُ بالقفز من النافذة، أدركتُ فجأة أن جسدي لا يريد ما أريد وأنّ له رغبة منفصلة تمامًا عن رغبتي، وبأنه يجهرُ بالخيانة فيما تتفق البقية من عقلي وإرادتي ورغبتي كلها فيما بينها.

لم يُبدِ جسدي ميلًا لتفهّم دوافعِ عقلي، ولا أية استجابة لرغبتي، بل التصق على الفور بالأرض التصاقًا. لا أعرف إن كانت هذه إيجابية تُحسبُ له أم أنه تشبّثٌ بهيميٌّ غريزيٌّ بائسٌ بالعالم.

جرى الأمر بمنتهى العفوية: وضعتُ يديّ على حافة النافذة وكانت حرارة الشمس قد أكسبتها دفئًا مُريحًا للنفس. أقصدُ راحةً تنتمي إلى الأيام العادية حيث تكون راحة النفس رهنُ تفاصيلَ صغيرة كدفء سطح في الشمس أو سماع أغنية في الليل من بعيد أو الاستيقاظ بعد حلم جميلٍ أو رؤية أطفالي الصغار في الميتم. هذا الدفء وإن ذكّرني بتلك التفاصيل الحميمة إلا أنه أبقاني بعيدة عن اقتناص جمالها الحقيقي واسترجاعها بطريقةٍ عفوية. وكان هذا سببًا إضافيًا لتأكيد انفصالي عن العالم ودافعًا لي للقفز حتى وإن بدا دافعًا باهتًا.

ما إن وضعت يدي على حرف النافذة كما أسلفت حتى تخلخلت قدماي كقدمي فرسٍ عجوز لم تعودا قادرتين على حملها. حاولتُ التنطط والنهوض بنفسي قليلاً لكن لم يكن بإمكاني فعل الكثير دون استجابة ساقيّ. بدا أن عقلي تجمّع فيهما، ولم يكن عقلًا سليمًا أو مطواعًا بالتأكيد، بل عقلًا خانعًا خائفًا فقيرًا.

لم يغضبني رفضه لطاعتي، فقد عرفت بالتجربة أن جسدي يتسلّم عني مهمة إدارة مشاعره وردود أفعاله على العالم من حوله. لكن رغم تفهّمي له تراجعت عن القفز وفي نفسي خزيٌ وألم. لا يمكنني تفعيلُ إرادتي بأقدام لا تطاوعني كهذه، في اللحظة الحاسمة تبدوان كأنهما تمتلكان وعيًا بنفسهما وبالعالم وتُخرجاني من الحَلبة زحفًا على أربع.

مسمارٌ مُفرَّغ أكل النملُ أحشاءه

أستطيع أن أحدّد بدقة متى حصل التغيير الأبرز. حدث ذلك عندما بدأتُ أرى نفسي من الخارج. ففي إحدى الصباحات حضّر ديدار فطوره بنفسه قبل مغادرة البيت. وعندما يكونُ مضطرًا لتحضير الفطور بنفسه تبعثُ طاولة الطعام على الكآبة حتى بالنسبة لشخصٍ ممتلئٍ بالطاقة والحيوية. صحنٌ صغيرٌ يفيضُ بزيت الزيتون حد الانسكاب، صحنٌ كبيرٌ نسبيًا فيه ذرّاتٌ من الزعتر، لطخاتٌ من اللبن السابح في مائه الأصفر في صحن مسطح، وأخيرًا كأس شاي أستطيع أن أجزم أنه من بقايا شاي سهرة الأمس نظرًا للونه الدّاكن والرّغوة الهامِدة التي تعلو سطحه. جلس متعجلًا بعد أن ارتدى ثيابه، راح يقطّع الخبز ويلتهم الطعام ويفرّغ فوقه الشاي ويتحرك على كرسيه بقلقٍ كأنه مرغمٌ على البلع. بدا لي أنه يصطنعُ الحماس لكنه لم يفلح، كان بائسًا مثلي لكنه بائسٌ بإشراق. لم أستطع تجنّب النّظر إليه وأنا جالسة إلى المائدة قبالته. بقيتُ جامدة عاجزةً عن تناول أيّ شيء رغم أني كنتُ أتضوّرُ جوعًا بعد ليلة منهكة من الاستيقاظ والإرضاع. من ناحيته لم يستشعر أبدًا ثقل حركاته في عيوني، ولو أنه نظر إليهما لربما كبحَ شيءٌ ما فيهما حركته، لربما توقّفَ برهةً من الزمن ليسترجع - كما في حركةٍ عكسية لشريط فيديو- كل شيء، ولربما فهم أخيرًا ماذا تقول عين الآخر فيما لو أوليناها بعض الانتباه.

في مواقف مماثلة يبدو لي ديدار كأنه يفتقد لبعض النباهة أو اللباقة الاجتماعية، فقد يظل على حركته الآلية بينما تتحول نظرتي من لامبالاة باردة اتجاهه إلى اشمئزازٍ واضح. بل يمكن أن تتناقض مشاعري اتجاهه وتتحول من نفور إلى اشمئزاز، إلى حب، إلى رغبة، إلى تفهّم، إلى كره، إلى احتقار دون أن يلحظ ذلك كأنه مُحصنّ في قلعة سحرية لا تُريه إلا ما يرغبُ برؤيته.

بالعودة إلى التغيير الذي حصل آنذاك، أتذكر أنه وبينما كان ديدار منهمكًا في طعامه وأنا أراقبه، شعرت بنفخ ريحٍ طفيفة خلف أذني وظهرت فجأة امرأة خلفي. لم أعرف ملامح وجهها أو مَن قد تكون. بظهورها الفجائي شعرتُ بضغط عينٍ كبيرة على قحف رأسي. أعرف أنها هنا، والألم الخفيف الشبيه بوخزاتٍ حارة والمتصاعد كدخان من خلف رأسي يُثبت ذلك.

لم يكن ظهورها ظهورًا عاديًا، فقد بدت كأنها تولد خلفي بكل بساطة، عدا أنه لا أحد يظهر بهذه الطريقة دون عبورٍ من الباب أو النافذة على الأقل. ثم في لحظةٍ قد تمتد لمدة رفّة عين، غدا كل شيء أمامي: زوجي وفطوره، غرفة المعيشة نصف الفارغة، صحون الأمس المتسخة على الطاولة، كيس البطاطا المفتوح والذبابات الصغيرة التي تحوم فوقه، غدا كل شيء باهتًا مسلوب الروح؛ إذ تراجعت حقيقة الأشياء كلها أمام حضور المرأة القابعة خلفي.

لم تقم المرأة بأيّ فعلٍ بدايةً، بل اكتفت بمراقبتي بينما أحاول أن أتآلف بلا كثير من التكلّف مع الفطور الصباحي العادي. الغريب أنه رغم رعبِ حضورها شعرتُ أنها مُتفهمة جدًا لحالي، وتعرف كمية

اشمئزازي وتعذرُ تعبي وتدركُ، مَن يدري كيف، إني عاجزة عن فعل أي شيء حيالها.

لم يكن ما بيننا شرارة تفهّم -على الإطلاق- فرغم أنها بدت متفهّمة تمامًا لحالتي إلا أنه كان نوعًا من التفهّم البارد، القصديري، اللاإنساني، أو هذا ما خُيّل لي نظرًا لظهورها الغريب ونفحة الريح المنبعثة منها. لا أتذكر بالضبط الدقائق التالية لظهورها، شعرت أولًا بنوع من الخدر ثم فقدانٍ للوعي، لكن حين استيقظت كان ديدار يلتهم طعامه بذات الثبات السابق، لذا استنتجت أني لم أفقد وعيّ تمامًا إنما خُيّل لي ذلك. ثم في قفزة تفكيرٍ غير محسوبة صرتُ أنا هي وصارت تلك المرأة التي تراقب زوجها وهو يلتهم فطوره بحيادية امرأة غريبة وبعيدة. صارت المرأة البائسة ذاك الصباح -إن صح لي قول ذلك- كومة قش، صرصاراً مُفرَّغًا أكل النملُ أحشاءه. ولوقتٍ طويل ستبقى تلك المرأة المفرَّغة أنا، دون أن يكون لي أي سلطانٍ عليها في حضور السيدة في الخلف، إذ إننا تداخلنا بشكلٍ عميق، بشكلٍ لا يمكنني تفسيره أو تبريره ببساطة.

رغم ما قلته حول ظهور المرأة إلا أني أجد نفسي بعيدة عن وصف شعوري آنذاك وصفًا دقيقًا. كان شيئًا أشبه بلحس الدماغ، أجل بالضبط، هناك لسان لزج وبارد يلحس دماغي بلا رحمة. هكذا بدأ الموضوع.

إن كان لا بد لي من تحديد لحظة تحوّلٍ إذًا فستكون هذه بالتأكيد هي اللحظة الأهم، فقبلها كان كل شيء غائمًا كشعور أيّ شخص بتعب آخر النهار. لكن تغييري الحاسم بانتقالي لجسد المرأة الواقفة خلفي مع احتفاظ جسدي السابق بملامحه وهيئته المعتادة ولّدَ أحداثًا جديدة لم أكن قد عشتها سابقًا، إذ بدأت منذئذٍ عملية تصعيد على كافة

المستويات إن صح القول. منذ استبدالنا مواقعنا أُغلِق باب الأمس أمام وجهي لتبدأ من هنا سلسلة لا متناهية من سوء الفهم ومن الألغاز التي أحس أني قريبة من فك شِفراتها وفهمها لكني أعجز كل مرة، وفي كل محاولة.

لا يعني استبدالنا أجسادنا أننا احتفظنا بها على تلك الحال، فقد جرت بعد ذلك تغيرات كثيرة، وانتقال واستعادة، لكن في المجمل بقيت السيدة حاضرة هنا، داخل جسدي أو داخل بيتي أو في كليهما.

الحياة من وراء عين كاميرا خفية

أتأمل النافذة فيما أسمع خطوات ديدار في الغرفة المجاورة يروح ويجيء متكلمًا بهدوء على هاتفه مع أحدٍ ما. أشتعلُ رغبةً في أن أكون مكانه أو في الطرف المقابل للهاتف، أن أحادث أحدًا وأكون ما أكونه في لحظة الكلام ولا شيء آخر. أرغب أن أكون في نقطةٍ واحدة في اللحظة الواحدة. أما هذا التشعب، هذا الهلام الذي أستشعره في عقلي وفي جسدي فينزع عني كل استقرار كأخطبوطٍ نصف هالكٍ متمرغ على الرمال. أتأمّل النافذة وأُبقي عينيَّ مفتوحتين إلى حد أنهما تدمعانِ بحرقة. لا يمكنني أن أحيد بنظري بسهولة عنها. هذه هي طريقتي في نزع خوفي منها، أو في تأكيده ربما.

كم أود لو أمتلك نظرةً تُحيلُ المنظور إلى رماد، فأحيل هذه النافذة رمادًا أو أعدم هذا البناء بأكمله وأبقى أنا والليل الهادئ يضم أحدنا الآخر ويمنحه الأمان الذي سلبته إياه الجدران والنوافذ والأقفال الكثيرة. لا بد أني وثبت هنيهةً من الحلم إلى الواقع؛ لأني على حين غرّة بدأت أنفخ من بين شفتي كأني أنفخ في الرماد.

تغريني فكرة الحديث على الهاتف مع شخصٍ يشبه ديدار تحديدًا. قد يعتقد أحدٌ ما أن من السهل أن أتحدث إليه ونحن زوجان لكن الحديث الذي أرغب فيه مختلفٌ بعض الشيء. ما أتوق إليه الآن هو نوع من التواصل الذي لا يهدف سوى للإبحار في الكلمات. حديثٌ

قوامه واستناده ودعامته الكلام، ولا أقول الثرثرة فهذه الكلمة المؤذية تسحبُ من كل تواصل روحه وغايته.

لن نختلف على الكلمة على كل حال، ما أوده هو نوعٌ من الكلام الذي لا يبتغي شيئًا خارجه على الإطلاق. حين نعيش معًا -كأزواج مثلًا- تختلط أشياء كثيرة، فالحضور الجسدي والمشاغل اليومية يأخذان قسطًا وافرًا من العلاقة ويتقلص كمٌّ كلماتنا بالتدريج. أمّا ما أتوق إليه بالتحديد فهو الكلام، الحديث؛ حديثٌ لا يُستبدل بالحضور الجسدي، ولا يتضاءل أمام المشاغل والهموم اليومية ولا يتقلص ولا يجف.

أتذكر أحاديثنا أنا وديدار في بدايات ارتباطنا، كان الكلام يتناسخ ويتكاثر من تلقاء نفسه بلا أيّ دفع منّا. كنا ننغمس في حواراتنا وندور فيها مطوّلًا مثل هامسترين في عجلة. الحقيقة أذهلتني قدرة ديدار على الكلام سابقًا وبدا لي دائمًا شخصًا مختلفًا، لا أعرف بِمَ يختلف عن الآخرين ولِمَ يجب عليه ذلك على أية حال. ربما نحتاج -حين نحب- أن نستشعر اختلاف الشخص المقابل وإلا فما من أحدٍ سيحب شخصًا يشبه الجميع. لا بد من إيجاد شيءٍ مختلف لنبدأ، فالاختلاف يصنع الحب. على الأقل يفجّره بدايةً.

لديدار أشياؤه الصغيرة التي تُميّزه على كل حال، هي أشياءٌ بسيطة، لكنها علامات فارقة لأنها تخصه دون غيره أولًا، ولأني أتمكن من تأويلها بمطلق الحرية ثانيًا. فمثلاً حين يودُّ البوح بمشاعره، يحرك فمه مطولًا قبل أن ينطق بكلمة. وطُولُ هذه الحركة يتناسب عادةً طردًا مع كمية الارتباك الذي يسببه له الكلام الذي هو بصدد نُطقه. كنت أتسلى كثيرًا بذلك في المواقف التي يُعبر فيها عن حبه، أو عن نفسه ببساطة.

ربما كانت حركة الفم هذه طبيعية جدًا، ولا بد أنها كذلك، إلا أنها كانت تعني لي الكثير، تعبيرًا لا إراديًا عن الحب.

يُنهي ديدار حديثه على الهاتف، يشغل التلفاز قليلًا ويجلس في العتمة لوحده. أراقب كل هذا وأنا مستلقية على السرير، أراقبه عن طريق حواسي، أذنيّ اللتين تتلقّفان حركاته وتترجمانها لي، وعينيّ اللتين تريان جانبًا بسيطًا من غرفة المعيشة وغرفة الحمام. دقائقُ ويطفئ ديدار التلفاز ليدخل الحمام، يخرج من هناك ويأتي ليستلقي بجسده الثقيل بجانبي. يستسلم للنوم حتى قبل أن يتقلب لمرةٍ واحدةٍ في الفراش.

أتخيله ممتلئًا بالحياة في كلّ مرةٍ يفعلُ فيها شيئًا ما. حيويته تُشعرني بالسوء، لكأني أسكن في طابقٍ سفلي، وأنظر إلى أفعاله من خلال عين كاميرا خفية في الجدار، أو لنقلْ إني ميتةٌ تنظر إلى حيٍّ خلّفتهُ على الأرض.

أقترب منه، أحتضنه من الخلف وأشعر أني أطوّقُ جدارًا.

الميتم

كنت أقود سيارتي إلى دار الأيتام حيث كنتُ أعمل من الثامنة صباحًا إلى الرابعة مساءً. كان عملًا لم أسعَ إليه قط، إنما طمحت إلى أن يشكّل مدخلًا لعمل مستقبلي، لكن ما إن دخلت حياة الأيتام حتى بدا لي أن هذا ما رغبت به طوال الوقت. وكان العمل جيدًا طوال سنوات، إلا أنه أوصلني إلى حد الاختناق الكامل دون أن أنتبه إلى ذلك إلا مؤخرًا. حين تركت عملي بسبب الحرب والنزوح من مسكني لفترة، اعتقدت أنها قضية أسابيع وأعود، لكني أتممت الآن عامي الثالث هنا، وكففت عن الاعتقاد بعد وقت قصير من نزوحي أني سأتمكن من العودة إلى حياتي واسترداد عملي السابق. لا يبدو أن لهذه الحرب نهاية، إنها رحى نشطة تدور فتطحن الناس والبيوت والحجارة، تطحن الآباء والأمهات على وجه الخصوص.

في الميتم عملتُ أعمالًا مختلفةً؛ إضافة إلى الرعاية التربوية قرأتُ قصصًا للأطفال وعلمتهم الكتابة والقراءة. كانت دار الأيتام هذه مخصصة للأطفال مجهولي النسب تمامًا وطاقم المربّين فيها ضئيل العدد.

لم تكن الدار مكانًا يبعث على التفاؤل في العمل؛ لأسباب كثيرة متعلقة بحالة الأطفال واكتظاظ الغرف والأسرّة بهم، وقلة المواد الغذائية والملبس، فهذه من المسائل التي لم تجد لها الدار حلًا ملائمًا

إلى الآن، خاصة أن الحرب ضخّت أعدادًا كبيرة من اليتامى. استفادت الدار طويلاً من إسهامات بعض المنظمات والأغنياء خارج البلاد، لكن الحال لم تصبح أفضل.

أحسستُ في الأيام الأولى لعملي هناك بنفورٍ كبير، نفور من المكان والبناء والأثاث بالدرجة الأولى. فالمكان أشبه بثكنة عسكرية قديمة بمدخلٍ حجري مهترئ وغرف كبيرة بائسة سيئة التفصيل. الجدران مغطاةٌ بدهان أزرق تقشّر في مواقع كثيرة ليُظهِرَ تحته دهانًا بنيًا متآكلًا هو الآخر لينتهي هذان اللونان الطاغيان بألوانٍ أخرى متمازجةٍ لا يعلم إلا الله عددها، فتعطي للناظر انطباعًا أن الحائط السميك ليس أكثر من طبقاتٍ رقيقة قابلة للتقشير وأنها لهذا السبب بالذات جدران لا تبعث الأمان في نفس مرتادي المكان أو ساكنيه. وعلاوة على ذلك كانت آثار العفونة تملأ الأسقف وتمتد على طول الزوايا بوقاحة لافتة. أما رائحة القِدم فتفوح من الدار الرطبة صيفًا شتاءً. تختلط هذه الرائحة برائحة الطبخ اليوميّ فتبعث مزيجاً نفاذاً يتعشّش بسهولة في كل ما يمكنه امتصاص الروائح وتخزينها بدءًا من ملابس الأطفال وانتهاءً بأسرّتهم والبُسط الممددة على الأرضيات. وبالمجمل لم تكن الدار بأي شكلٍ من الأشكال مكانًا سليمًا لتنشئة الأطفال الصغار.

بقيت الصورة الأولى التي التقطتها بدخولي الأول إلى الدار عالقة في ذهني طوال سنوات عملي هناك لم يمحُها حتى حبي الكبير للأطفال.

أما بالنسبة لغرف الميتم فقد كانت موزّعة على طابقين وتتشابه في كل شيء حتى بالخوف الذي تبعثه في نفس الزائر بمجرد أن يطأها بقدميه. غرفٌ واسعة بأسقفٍ عالية وألوانٍ زيتية باهتة شبيهة بألوان

جدران المشافي الحكومية. وبشكل مماثل كانت لكل الغرف نوافذ كبيرة أسدلت عليها ستائر ثقيلة تمتد على طول الجدار من السقف وحتى الأرضيات حاجبة بها النوافذ العديدة التي تملأ الجدار. الستائر شبيهة بأكياس القنب المخصصة للتبن ومحاصيل القمح وتفوح منها رائحة الخل والقِدم على الدوام. المرة الوحيدة التي تجرأت فيها على رفع الستارة كاد أن يعمي نظري النور الساطع لضوء النهار. لشدة الفارق بين عتمة الغرفة تلك والإنارة الخارجية، بين الحياة المتمثلة بالضوء والدفء الخارجيّ والظلمة والبرد الداخليَّين، كنت أشعر أن ثمة أمرًا مهمًا يتوقف على إزاحة هذه الستائر مرة واحدة وإلى الأبد، لكني لم أجرؤ على رفعها. وفي المرة الوحيدة حين حدّثتُ المشرفة عن ضرورة السماح بدخول الشمس إلى الغرف قالت بحزم: «دعي الأمور على حالها، العاملة تشمّس الغرف كلها في الوقت المناسب». بدا لي حزم المشرفات بابًا آخر لعدم اطمئناني، فتخيّلتُ أشياء كثيرة، الكثير من الأفكار السوداء المتعلقة بتعاملهن مع الأطفال، لكني لم أرَ شيئًا منافيًا للقانون رؤيا العين.

الآن وعيني ما تزال مسمّرة على نافذة غرفة نومي، أفكر أني لا أتمكن من استعادة الشعور الدافئ لتلك الفترة، أو حتى شعوري بالضيق في تلك الغرف زيتية الطلاء. إضافة إلى ذلك يبدو شعوري بالحاضر غائمًا، الأشياء حاضرة بقوة لكني منفصلة عنها إلى حدّ بعيد. ما أفتقده الآن هو الشعور بذاتي، وبدقة أكبر؛ ما أفتقده هو حيادية العالم من حولي.

أمنّي النفس بهذه الرغبة الأخيرة بالشعور بأي شيء، لولا هذا الشعور النافر الصغير لأصبحت أشياء العالم- حتى الصغيرة والأليفة منها- كائنات متوحشة لا نهائية الأذى.

رقصة الجدران

يقع منزلنا الحالي خارج المدينة، وقد اخترنا هذا المكان لأنه بعيدٌ عن قصف الطائرات والنزاع ولأن ديدار تمكّن أخيرًا من إيجاد عملٍ هنا بعد أن طُرد من عمله السابق. المنطقة من حولي شبه خالية من أبنية مشابهة للبناء الذي نسكنه، عدا بقع واسعة مُعَدّة للبناء ومحاطة بسياجات معدنية لمنع اقتراب أهالي البلدة منها. من حولي على مسافة كافية تقوم بيوتٌ عشوائية، بلا طوابق، أنظر إليها من الشُرفة وأشعرُ بالحنين للهبوط على الأرض، فأنا مذ أنجبت ماف أحسُّ أني مُعلّقة ببالون في الهواء، وجُلّ ما أرغب فيه ليل نهار هو أن أهبط وأحط بثقلي على الأرض كغيري.

لا أعرف إن كانت ستستمر حالة الحنين للهبوط على الأرض أكثر، ولكنها بدأت تخيفني بحق، خاصة حين أتأمل الخارج من نافذة غرفة نومي. في الشرفة أجلس لدقائق، لساعات، لا يخيفني شيء، لا شيء على الإطلاق، لكن العودة إلى غرفة نومي أو رؤية النافذة فيها تُخرج قلبي من فمي وتعصره كليمونة طازجة.

أُمنطقُ الأمر بالعقل، أنا التي كنتُ فخورة بعقلي على الدوام، لكني أعجز عن تحديد ماهية خوفي من النافذة على وجه التحديد. لا يُعينني أي منطق على فهم سبب هذا الخوف. عقلي يخونني فيبدو كل تبرير حزمة عللٍ جافة وباهتة. أجلس وقد ابتلعتني الحيرة في أول مكانٍ

تصادفه عيني وأواسي نفسي بصبرٍ كبير: «انظري، كل الغرف متشابهة. النوافذ والشرفات من أسس المنازل الصحية، إطلالة على الخارج تُريحُ النّفس والعين والأعصاب. الأمر ليس معقدًا إلى هذا الحد. كل الغرف متشابهة، كل الشرفات متشابهة، كل النوافذ متشابهة. النوافذ... آه النوافذ الملعونة ليست ملعونة إلى هذا الحد، إنها لا تُخيف البتة».

أذهب أبعد من ذلك لأقنع عقلي المضطرب فأقول: «النوافذ تفتح فضاءً على فضاء، وحدها التي يمكنها نقلنا مع إبقائنا في أماكننا. من هنا، من منزلي أستطيع مشاركة أهالي البلدة حياتهم، لستُ منعزلة كما يُخيّل إليّ، لم يزل بعدُ بإمكاني عيش تفاصيلهم والاستنارة بضوئهم واستنشاق هوائهم. هي النافذة التي تضمن تواصلي معهم. هل يمكن تخيّل جدارٍ بلا نافذة؟»

أتأفف حين أُنهي كلامي؛ فأنا أعرف أن هذه الطريقة في مخاطبة نفسي لا تني تؤكّدُ لي أن ثمة خطبًا ما بي. أعرف ككل العقلاء أن كل الغرف متشابهة وأن النوافذ ليست أفلام رعبٍ على الإطلاق، وأعرف علاوة على ذلك أن نظرتي هي التي تغيرت. ويستمر خوفي رغم ذلك.

أقف مُجدّدًا على قدميّ، أعبر الغرف، الواحدة تلو الأخرى، أربعُ غرف كبيرة وباردة، أعبرُ المطبخ وأفتح باب الحمام، أضع قدمي في الشرفة ثم أعيدها للداخل، أطل على غرفة الطفلة التي حضرناها لاستقبالها، أخرج، أدخل الغرفة الفارغة إلا من خزانة وبساطٍ صغير وحبل غسيلٍ تتكدّس عليه الثياب المغسولة على الدوام، أتحرر من هذه الغرفة كما تحررتُ من غيرها إلى أن أدوس بقدمي غرفة نومنا. عندها يُعتصر قلبي من الخوف مجددًا وأنهارُ بالبكاء: «لن ينفع شيء،

عقلي لا يعمل، لقد فسدَ بين ليلةٍ وضحاها»، «حدث انفصالٌ بيني وبينه، أشعر بذلك»، «شيءٌ ما لحس دماغي وانتهى»، «أقول له ما كنت أقوله مرارًا لكنه لا يسمعني هذه المرة». هكذا أتحدّث إلى نفسي، أشخّص ما بي وأحرص على ألا أكذب على نفسي: «لم أعد كما كنتُ سابقًا».

وهكذا أقضي معظم نهاراتي أتنقّلُ بين الغرف وأتجنب -إلا عند الضرورة- الولوج لغرفة النوم. في كل تجوالي بين الغرف، أحرصُ على أن أكتشف كل مرة أنها غرفٌ عادية، هادئة وحيادية.

حين أتعب من التنقل بين الغرف أجلس حيث تأمرني قدماي بالجلوس، وأحس في تلك اللحظات أن الجدران تميل عليّ كميل حائطٍ على جسد طفلٍ مهددًا بسحقه. تبقى الجدران في ميلانها هذا وقتًا طويلًا لتُميدَ أثر الرعب فيّ. وعادةً أميّز هذه الجولة من يومي حين تُشكّلُ الجدران مع الأرضيات زاوية حادة وتحشرني فيها. عندها أعرف أن جولة رقصة الرعب قد بدأت.

حين يعود ديدار إلى المنزل تعودُ الجدرانُ إلى أماكنها بعد أن كادت تدقُّ رأسي، تستقيمُ من تلقاء نفسها وترجع جدرانًا حقيقية غير تلك التي كانت تعبثُ بي منذ قليل. أستطيع أن أراها تتحرك وتستوي في أماكنها في اللحظة التي يضع فيها ديدار المفتاح في قفل الباب.

يعودُ ديدار، وفجأة لا أشعر بالحاجة إلى قول شيءٍ بخصوص تعاستي طوال اليوم. أعد الطعام لكلينا، أحمل ماف إلى غرفة الجلوس ونتحدث عن تفاصيلها كما يتحدث أي أبوين بحب حول تفاصيل طفلهما. وهكذا أدخل دور الأم الراضية والزوجة الطيبة بسهولة ويسر

فلا أشعر بأية حاجة إلى النّبش في موضوعٍ يُخجلني أيما خجل. ولأني أعتقد أن الأمر لن يتكرر ثانيةً، وأن الجدران ستحتفظُ باستقامتها في اليوم التالي وأني أكثرُ توازنًا وتعقُّلًا من أن أُخضِع نفسي لتجربة مماثلة، فإني أنفي من عقلي حتى معاناتي السابقة وأقول لنفسي موبخّة: «يبدو أنكِ أفرطتِ في الخوف، كان ينقصك أن تتبولي في ثيابك، وِلمَ؟»

الكبدة التي بيننا

قدِم ديدار اليوم قبل ميعاده بقليل، وكنتُ عندما فتح الباب أهمُّ برمي كبدة الدجاج المتبقّية من يوم أمس. كان عليّ التصرف منذ الصباح والتخلص منها وادعائي تناولها، لكني نسيت الأمر تمامًا. حين دخل وجدني أفرغ الكبدة في كيس من البلاستيك بينما تقبعُ سلة المهملات تحت يدي مباشرةً.

- هل فسُدَت؟ سأل بهدوء.

كان عليّ إيجاد حجّة على الفور، حتى وإن كانت كذبة صريحة، فادّعيت أنه نسيها لليلة كاملة على الطاولة. نظر إليّ محاولًا فهم سبب ادّعائي، لكني أكملت إفراغ المتبقي بإصرار وقناعة. قال:

- سأجلب لك غدًا المزيد من الكبدة. تقول أمي إنها مفيدة للمرأة في النفاس. لكني متأكد أني لم أتركها على الطاولة.

- ربما تتحدث عن يومٍ آخر.

- آمل ذلك.

قالها بهدوء وهو يتأمل فردَتي حذائه اللتين تموضعتا بتلقائية إحداهما فوق الأخرى.

هل يمكنه أن يميز الأيام بعد؟ قد لا أكون كاذبة إن ادعيت الخلط بينها، أيامي تتناسخ ليس إلا. لكن يبدو أن فردَتي حذائه اللتين تموضعتا للتو فوق بعضهما البعض تقولان شيئًا آخر. ففي موروثنا الشعبي، تشير

هذه الحركة العفوية إلى الخروج. ديدار قادمٌ من الخارج وعائد إليه، من السهل عليه تمييز الأيام. من يعيش في الداخل لا تهمه الأيام ولا تصدُق له أية رواية عنها.

يُجبرني ديدار - منذ أنجبت ماف- على تناول الكبدة كل يوم تقريبًا. بعد اعتراضٍ مني استبدل كبدة الخراف والعجول بكبدة الدجاج. إني بالكاد أبلعها. أستطيع القول إن الأمور كانت تسير جيدًا في وجود ديدار إلى جانبي، لكن كبدة الدجاج الملعونة هذه كانت المنغّص الوحيد، إذ توجّبَ عليّ أكلها وديدار يراقبني أفعل ذلك. أخبرته أن في كل زيادة أو مبالغة ثمة ضررًا، لكنه أصرّ على أنّ عدة ملاعق كل يوم لن تضر. أعتقد أن الأمر ليس متعلّقًا بكبدة الدجاج في حد ذاتها، بل بإحساس ديدار أنه يقوم بشيءٍ ما من أجلي، إذ لا بد أنه يرى أني لست كما كنت سابقًا، ليس من العسير رؤية ذلك. ديدار رجلٌ قليل التعبير، وإن أقدم على فعلٍ عاطفي أو تعبيري فإن ذلك يُشعره بالارتباك، ولذا أتصوّر أن حِرصَهُ على إطعامي الكبدة يشعره بحالٍ أفضل، إذ يعبّر عن ذاته دون أن يضطر لفعل ذلك بطريقةٍ مباشرة.

كان ديدار على الدوام بعيدًا ومقترًا في التعبير عن نفسه أو عن أي شيء يخصّه، وقد وجدت الأمر مسليًا في الكثير من الأحيان؛ إذ بدا هذا الحرص على عدم التعبير نوعًا من الغطاء الخارجي المكشوف للجميع إلا له، ولأنه لم يكن مكشوفًا له فقد عجز دائمًا عن نزعه. في المقابل كنت أنا أستاذةً في التعبير، بل لأقلْ كنتُ منشغلة على الدوام لا بالتعاطي مع الأشياء والأحداث والمشاعر بل بالتعبير عنها.

ربما أصبح تعبيري الزائد عاملًا حاسمًا في إسقاط هذه المهمة عن ديدار. ربما زدت بذلك من جرعة سكوته. مَن يدري؟

احتمالات مفتوحة للموت

أعتقد أننا نستجمعُ المشاعر الأولى في طفولتنا كما نستجمع أشياءنا التي نستخدمها حين نؤسس بيتًا جديدًا. ثم إننا نعمل فيما تبقّى من حياتنا على نسخ هذه المشاعر واستنساخها في ورشات بآلات نسخ عملاقة لتعيننا على إكمال طريقنا. وهكذا نستمدُ عادةً الدفء من لحظةٍ ما عرفناها في الماضي، من لحظةٍ تقلّدُ لحظةً نموذجية أخرى غارقة في نقطةٍ ما من خط الزمن. يعيدُ الزمن الكسول نفسه بتنويعاتٍ مُخادعةٍ صغيرةٍ ومُقنّعة وتنطلي علينا الحيلة بسهولة.

كل لحظات الدفء التي استشعرتها وأنا ناضجة بدت لي كإعادة تدوير لذكريات معدودة على الأصابع، كنسخٍ لنماذج أو لصور جاهزة في ذاكرتي... صورة غرفةٍ دافئة، وشتاء، ووقود، ومدفئة، وأبي وأمي يتحادثان. هذه هي الصورة النموذج التي تمثل بالنسبة لي جو السعادة المثالي التي بدوت على الدوام في سعيٍ لاستردادها.

أفكر بهذا لأني بأمسّ الحاجة الآن إلى استعارة صورةٍ من الماضي لاستنساخها وتقليدها. كان الأمرُ ينجحُ في السابق حتى دون اجتهادٍ منّي. الآن تبدو الأشياء متقطعة، الذكرى مُتقطّعة، الشعورُ متقطع، لا يمكن إيصال لحظة فرح بأخرى، ولا لحظة راحة بأخرى. خط الزمن متعرج، بل لأقلْ إنّ الخطّ تقطّع. تتنقل بي ذاكرتي لكن كل النبش بلا طائل. أعرف أني لن أتمكن من الإمساك بأي شعورٍ قديم أو

حديث. فسواء أكانت الذكرى جيدة أم رديئة، تنتابني حيالها الحاجة إلى الاستفراغ، وفي أفضل الأحوال أبقى باردة كحجرٍ في قاع بئر. أما المشاعر الحالية، فهي بلا شكل وبلا لون. أنا بعيدة، بعيدة عن نفسي أكثر مما يمكنني احتماله.

يبدو أني أفكر كثيرًا لكن يؤلمني حقًّا عجزي عن استعادة الأشياء كما كنت أفعل بعفوية في الماضي. يزعجني الأمر لأنه يعطيني شعورًا مؤكدًا أني لم أعد على طبيعتي، أني أنزلق وأتبلّدُ يومًا بعد يوم. وهكذا ففي الأيام التي لا أتنطط فيها بين الغرف من الخوف أتكوم على نفسي وأجهد في تذكر الماضي. وأفشل بطبيعة الحال؛ إذ إني أعيش الآن محاصرةً في الحاضر الفقير.

عندما يعود ديدار من عمله في نحو الساعة السادسة مساءً أكون قد اكتفيت من التجوال بين الغرف ومن السعي لعيش الماضي، أغسل وجهي بالماء البارد كما العادة فتأتيني القطرات كالصفعات توقظني، وهذا ما أودّه: أن أستيقظ، أن أبقى مستيقظة على الدوام. لكني أسقط في الغيبوبة من جديد، وتعود الدائرة المحمومة مجددًا مع إشراقة كلّ يوم جديد. تعود الأسئلة والتساؤلات والمخاوف مجددًا وتضيقُ دوائر الوهم عليّ، فأقرر قراراتٍ كثيرة وأتراجع عنها كلها، ألهي نفسي بأشياء لا تفيد، أشياء متعبة بعض الأوقات، أرضّع الطفلة كل ساعة أو نصف ساعة في بعض الأيام، حتى إن لم تكن جائعة، حتى إن لم يدر صدري الحليب، حتى وإن كانت عملية الرضاعة في حد ذاتها تعاسة. ففي كل مرة ألقمها صدري، أشعر بالأرض تهتز أسفل قدمي. ليس مرد ذلك إلى تعبي أو مللي، لا يمكنني تحديد علة الأمر، لكنه يشبه عندي محاولة تفريغ نفسي وما فيها داخل الطفلة. هذا التفريغ بالذات لا أستطيع

احتماله، لكني أحتمله على مضض لمواجهة وحوش النافذة وغرف منزلي.

في أيام أخر حين أكون بمزاجٍ أسوأ، أتجهّزُ للقفز من النافذة وأقضي ساعاتٍ فيً محاولة إقناع نفسيً بجمال الحياة. أجادلُ نفسي بالعقل والعاطفة، أتوزّعُ بين أدوارٍ متعددة كأني فردٌ من مجموعة العلاج النفسي والطبيب المعالج في الوقت ذاته. حين أعجزُ عن كل ذلك، أبدأ برسم احتمالات القفز، ومع أني أعرف أن الأمر ليس بهذا التعقيد إلا أني أحبُ الموت وفق احتمالاتٍ مفتوحة.

لِمَ خطر الجنون في بالي؟

صاحت بي أمي ذات يوم حين رأتني أتمشّى بثقة على حافة حائطٍ عالٍ مُهدّم: «مكانك المارستان»... «لا يلزمك إلا الحبل والوثاق»، كناية عن جنوني. مثل هذه العبارات كانت تتكرر على الدوام بين الحين والآخر، وقد بدا لي أن الجنون تولّد في أصله من إطلاق حُكم متسرع على أحد بهذه الشاكلة. هل يمكن تصديق أن الجنون في حد ذاته ليس سوى نخرٍ أبعد عن العين في نسيج الحياة الكثيف؟ هل يمكن تخيّل أن الجنون هو الذهاب إلى أبعد نقطة ليس إلا؟

الفعل غير المتوقع من المجنون مثير للرعب في حد ذاته؛ إذ يبدو كأنه خارج المنطق الهادئ المتّفق عليه للجماعة. هذه الحرية المرعبة في عمل كل شيء، هذا السير إلى آخر «حد» هو الجنون ذاته.

استوقفتني كلمة «حد» في سيل أفكاري الجارف، ففكرت: «من أورد كلمة «الجنون» على لساني؟»، «كيف خطر ببالي التفكير في هذا؟»، «هل أعتقد حقًا- وإن بطريقة غير واعية- أني قد جُننت؟» لا، لا أعتقد، لا يبدو أني أتّهم نفسي بالجنون، بل أتّهم كلمة «الجنون» بكل هذا الثقل المُكتسَب. لا ترعبني كلمة «الجنون»، بل ترعبني حقيقة إني بتُّ أرى كل شيءٍ عارٍ من المعنى ومن القيمة. هذا السرير، هذه الدثارة، علّاقة ثيابي، خفُّ ديدار الليلي قرب الخزانة، منشفة الاستحمام المرمية أرضًا، علبة دواء المغص الخاصة برضيعتي، الوسادات المُكدّسة في

الزاوية، كأس شاي الكاميليا الموضوع منذ البارحة على حافة النافذة؛ كلها تبدو لي في هذه اللحظة مجرد أسماء، أسماء لأشياء لم أعد على يقين من فحواها أو دورها في حياتي. حتى اسمي، هل لي اسم؟ ما درجة التصاقه بي؟ وعندما ينادونني به هل ألتفت لأني أمثّل المُنادى؟ أم كان الأمر على الدوام مجرّد اتفاق عبثي امتثلت له باستسلام وبدونما انتباه؟

هكذا بدأ الانفصال بين الأشياء ومعانيها أو بين الأشياء وأهميتها.

حين تكبر ماف ستعرف أن المِنشفة لتجفيف الجسد، والنافذة للتهوية، والكرسي للجلوس عليه، والوسائد للاتكاء أو النوم عليها، لكنها لن تعرف ببساطة أن كل هذه الأشياء كانت لا شيء حين كانت هي بعدُ خارج منطق الجماعة. حتى اسمها سيكون بديهيًا لدرجة أنها لن تشك لحظة بأصالته أو زيفه. أحسد ماف لأنها لا تُغلِّف بعدُ الأشياء بوظائفها ولا تعرف إن كانت المِنشفة للتجفيف أم للمص، إن كان الكرسي للاستلقاء أم الجلوس عليه. هذه الحالة من البراءة الوحشية تلاحقني في هذه اللحظة وتطمرني بحنينٍ مهول. ورغم أني - كأي أحدٍ آخر - لا أتذكر تلك المرحلة السابقة للالتحاق برَكب الجماعة إلا أنيٍ أحنُّ إلى تلك الأزمنة، بل لأقلْ إنّ الأزمنة البريئة والوحشية تلك تقفز بحيوية إلى ذهني كجنة مفقودة وتغريني بالراحة التي فاتتني بتسمية الأشياء بمسمياتها.

أقول لنفسي بصوتٍ أعلى قليلًا: «هذه علبة دواء ماف، هذا كأس شاي فارغ، هذه قطعة زجاج مكسور تعود ربما لأيام فاتت حين سقط قدح الشاي من يدي». أتابع: «هذا سرير، هذه خزانةً هذا مقص أظافر، هذه كأس يانسون». أراها ترتاح كلها في منطِقها، في منطق الجماعة وتتشرب عقدهم الاجتماعي بتؤدة، أما أنا فقد ضللت الطريق الآن، أنا خارج الجماعة وأراها بعينٍ ثالثة.

في طفولتي عرض التلفاز ذات يوم قصة فتاة انفصل والداها فقرر الأب أن يُخبئ الفتاة الرضيعة في كهفٍ بعيدٍ مذيعًا على الملأ خبر موتها. تلك الفتاة التي لم ترَ إلاّ جدران الكهف ووجه أبيها في العتمة تحوّلتْ إلى حيوانٍ حقيقيّ حين أُخرجت من كهفها بعد نحو خمسة عشر عامًا. كانت كائنًا حيًّا فاتَها الانتماء إلى الجماعة. وهذا الانتماء لا يعني انتماءً جسديًا -فقد بقيت الفتاة نفسها، جسدًا بشريًا بامتياز- لكنه جسدٌ لا مُنتم، سابحٌ خارج الجماعة، خارج الثقافة التي تروّض وتكبح وتقص وتنّحت الجسد المنتمي.

طفلتي تشبهها إلى حدٍّ ما، فهي غير منتميةٍ بعد، وخزّانُها البشريّ فارغٌ تمامًا. أحسدها وأشفق عليها من هذا العري. حين رأيت جسد الفتاة معروضًا على التلفاز رأيت رؤيا العين شراراتٍ لا إنسانية تنبعث منه، لا يمكنني أن أعرف إن كانت تفكر بعقل بشريّ أم حيوانيّ لأنها لم تكن قد تعلّمت الكلام بعد. ما أعطاها الهيئة الغريبة هو أنها ببساطة لم تملأ خزّانها، لم تضمن مخزونها من التجربة الإنسانية، ولم يكن لها ماضٍ إنساني يقيها من هذا التّحول القاسي إلى حيوان.

تقينا الذاكرة إذ تُكدّس لنا التجارب كما تُكدّس أمٌّ الطعام لأطفالها مع اقتراب المجاعة. بالنسبة لمجاعة الفتاة التي ابتدأت حتى قبل أن تخُزن شيئًا من التجربة الإنسانية، فإن المجاعة أكلتها، أكلتها إنسانيًا وأبْقَتْ جسدها الملعون يعيش بأنانية مادية مفرطة القسوة.

يبدو أني أُناقض نفسي كالعادة، فهل عليّ أن أسعد أم أتكدر بانتمائي إلى الجماعة؟ آه، يبدو الأمر شائكًا حقًا، الجماعة تقينا من الكثير من المآسي، وتبقى رغم هذا الفضل ثقيلةً فيما تطلبه منّا، بل إنها تمصُّ طاقتنا مصًّا.

منذ أن اضطررت إلى البقاء وحيدة في البيت بسبب وعكاتٍ عديدة أصابتني قبل حملي بماف، بدأ منطق الجماعة يتلاشى شيئًا فشيئًا. صرتُ -إلى حدٍ ما- خارج الجماعة ومنطقها، وبعد ولادة الطفلة صارت نظرتي لهذا العُريّ واضحة وضوحًا لا يمكنني تجاوزه بصمت. إني أرى الأشياء عاريةً عُريًّا مفجعًا. لا يعني هذا أني أراها مؤذية، لا أبدًا، لا يمكنني ادّعاء ذلك، لكن عُريها يفاجئني حين يُظهر لي كم صرت بعيدة، بعيدة إلى درجة لا ينجيني معها شيء أبدًا.

غمامة

قبل أيام رجوتُ ديدار التغيب عن العمل لفترة، وقد لبّى طلبي بعد أن منحه صاحب العمل إذنًا. صرت أنام الليل بهناء وأقضي النهار كأنه ملكي أنا. أنا سعيدة بحق. أعتقد أن الغمامة انقشعت. ألاعب الطفلة وأميّز ضحكتها ومحاولتها إخراج أصواتٍ بدفع رغوة البصاق خارج فمها.

زالت الغمامة بيني وبين ديدار أيضًا، إننا نقضي أيامًا خفيفة وعذبة. ولكي أزيد من عذوبتها أبذل جهدًا إضافيًا، فأحرص على ألا نتعلق بمواضيع قد تخلق سوء فهم، أبتعد قدر الإمكان عن إثارة الحديث عن تلك الآلام، وأجد أن نكرانها يعود بالنفع عليّ. أسعدُ لحلولي هذه وأستخلص أن الهرب من الألم ليس بهذه الصعوبة، ليس بهذه البشاعة، كل ما عليّ فعله هو الابتعاد كلما ألحّت الأفكار على الاقتراب. أجدني كثيرة الكلام، وواعية بحبّي للكلام، أتحدثُ عن صديقاتي اللاتي تفرقت مصائرهنّ، وعن أبي، وعن طفولتي في القرية، وعن جدتي التي عضها الذئب لكنها لم تمت. قصص كثيرة كانت تتدفق الواحدة تلو الأخرى تدفقًا آليًا، يضيع زيفها في صدقها وتكتسب أهمية فريدة لأني أتمكن من روايتها بسلاسة بعيدًا عمّا يُقلقني في الداخل.

يعّبر ديدار في بعض الأحيان عن سأمه من سرعتي وإصراري على الثرثرة طوال الوقت وقد قال لي البارحة:

- لم أكن أعلم أنكِ تحبين الكلام إلى هذا الحد.

صحيحٌ ما يقول، فأنا عادةً من المقتِرات في الحديث عن العائلة والماضي والآخرين. لكني أفعل الآن كل ما لم أعتد فِعلهُ سابقًا وليس سهلًا على ديدار استيعاب ذلك حتى إن رأى الفارق، فأنا أحاول طمس دوافعي وتحوّلاتي قدر المستطاع. قلت له لأبرّر حبي للكلام، كأن عليّ فعل ذلك:

- إني سعيدة، هذا كل ما في الأمر، ثم إني اشتقت لحياتي السابقة ومتفائلة بعض الشيء بعودة الحياة كما كانت.

تحولت نظرة ديدار لنظرة أبٍ يدرك أن ابنه يكذب لكنه يجبر نفسه على اصطناع تعابير المُصدِّق لا ليكسب ثقته ولكن ليُكمل اللعبة. لكني لست طفلته، ولست طفلة، وأعرف أنه يعرف ما بي، ولهذه الأسباب بالتحديد أعتبر كل شيء من ديدار، كلماته، تعابيره الخائبة، طريقته في توجيهي نحو الاختصار أكثر في كلامي، إقحامه قضايا يومية جدّية في أحاديثي غير الهادفة، تسكيتًا قاسيًا.

لكن رغم ما خبأتهُ في جوفي من نقمة عليه، إلا أن ثلاثة أيام من الثرثرة المتواصلة أرجعتني خطوات جدية إلى حياتي السابقة، بدا الفرح يبرز بمنخاره من نقطةٍ ما في رأس النفق، وبدا النفقُ كأنه مسير طريقٍ ترابيةٍ قصيرةٍ نحو الشمس أخيرًا.

السيدة الخفيّة

شيء واحد بقي ثابتًا رغم تغيّر أحوالي، وهو حضور السيدة الخفية. تظهر في فتراتٍ متقاربة، تحدّق بي من الخلف، دائمًا من الخلف، لا أعمال أخرى تقوم بها سوى مراقبتي. ألقاها أحيانًا في كل مكان، تكون هنا حين أقوم بمهام يوميةٍ، مثل إعداد الطعام، تنظيف الغرف، عند اهتمامي بماف أو إرضاعها، عندما أتحدث إلى ديدار تكون أيضًا حاضرة، قابعة في زاويةٍ ما، هكذا أراها بعين عقلي وأعرف كذلك أنها لا تهتم إلا بي. حتى حين ألجأ إلى الفراش تكون أحيانًا آخر من أودع قبل أن يأخذني النوم. نعبر الغُرف عادةً معًا، وحين تدخل عليّ في غرفةٍ بعد وقتٍ من دخولي إليها، هذا يعني عادةً أنها تريدني في شيءٍ ما، أن ثمة حوارًا ما سيجري بيننا. أما حين ندخل إلى غرفةٍ ما معًا أو حين تكون هناك على كل حال، إذ بإمكانها أن تكون في كل مكانٍ بلا عناء، فهذا لا يشير إلى شيءٍ عادةً، فلا نتحادث ولا نتجادل.

تقف عادةً خلفي، بمسافةٍ معدومة، ملاصقة لي بالأحرى. في بعض الأحيان، وبدون أي مبررٍ ظاهر، نستبدل مواقعنا، لا تعود هي امرأة في الخلف، بل تتقدم لتدخل جسدي فيما أتراجع أنا إلى الخلف وأدخل جسدها، وهكذا لا أراها ولكن بمجرد رؤيتي لنفسي من الخارج أعرف أن الاستبدال قد تم.

تزعجني عملية الاستبدال هذه لكني أنفذها رغم ذلك بصمتٍ كبير. لا أعرف ما الذي يجبرني على فعل ذلك، ربما لأني لا أرى وجهها ولا أستطيع محادثتها أو إقناعها بالتوقف عن هذه اللعبة. ثم أني لا أجد وقتاً لإجراء أي محادثة، فغالبًا بلا أية مقدمات يتم الاستبدال وأرى أني أنفذ المخطط بسلاسة. ربما ليس الأمر سيئًا لهذا الحد، من يدري؟ ربما تكون هذه العملية كلها نابعة من رغبتي وحاجتي المكتومة إلى أحدٍ ما، أو ربما هي ذيول بعض أوهام وخيالات طفولتنا أن نصنع صديقًا من الأخيلة ونتعامل معه على أنه حقيقة. بالتأكيد ليس الأمر بهذا الوضوح كما هي الحال عند الأطفال، فمن السهل عليّ أن أجد الفاصل بين الواقع والخيال. هذا ما أعتقده على الأقل.

في خصوص ردود أفعالي حيالها أجدني متناقضةً غالبًا، فأحيانًا أكون راضيةً تمامًا بحضورها، أو أكون لا مباليةً، في حين أن بقاءها يزعجني ويخيفني في أحيانٍ أخرى. إنها لا تكلّ ولا تملّ.

تبًا للفرح

«يا للحب كيف يحيلُ كل شيءٍ عداه رمادًا!» قلّبِ الرماد لترى، لا زيف الحب، بل زيف ما نُجمّله به في لحظات فرحنا. تبًا للفرح.

الآن، لا يمكنني قول مثل هذه الترهات؛ ربما لأن شعوري منفصل، ربما لأنه مُغيّب. نستطيع قول أشياء منمّقة عندما نكون بمزاج جيد، لا نفكر فيما نقول ولكننا نقوله لرغبتنا في قول شيء. ذلك أننا لَا نستطيع أن نُمسك أنفسنا عن التعليق على حياتنا من هنا ومن هناك. أن نقول يعني أن نؤكد أننا نفعل أو فعلنا أو سنفعل، كأننا نثبّت العالم من حولنا بأسلاك الكلمات.

المُحب ساذج. يبدو أن التعاسة عندما تجيء تجبرنا على الجدية. الألم والتعاسة يحثّاننا على الوقوف على أقدامنا، يفصلاننا عن مجال العالم ويدفعاننا لتأمُّلهِ عن بُعد. أما في حالة الفرح فنكون فقراء، نعيش ونعيش فحسب، لا نتأمل فرحنا، لا نتأمل العيش بل نعيشه كما تعيش النبتة في أصيصٍ على حافة نافذة.

أفكر أني أعطي للأشياء المعاني لأني عاجزة ببساطة، تبًا لي. هنالك أشخاصٌ يتمنّون العيش فحسب، وآخرون مثلي يكتفون بتأمُّله. مثلي أيضًا يسعى هؤلاء لكمال الأشياء ويصيبهم هذا الكمالُ في مقتل.

العالم ثوبٌ أزرقُ بمقاس واحد

أتذكر جيدًا بدايات إعجابي بديدار. لم يكن إعجابًا مُشخصنًا، لم يكن مُرتكزه ديدار نفسه، بل العالم المُتناسق الواضح الواثق من ذاته للرجل. كانت ثمة رغبة لا يمكنني مقاومتها أو دفعها بعيدًا عني، وهي الرغبة في العيش قريبًا من خط تناسق العالم. هذا الخط أمّنهُ لي ديدار. ففي مواجهة كل حالة ضياع كان ثمة إشعاع منبثق من بعيد يؤكد لي أن العالم هو ما هو. وضد كل فكرة مشوشة تنبت في داخلي كانت ثمة مقاومة من العالم الخارجي الواثق من نفسه، الناسف بلا أدنى حيرة لكل تناقضات العوالم الداخلية وتشوهاتها. قلت لنفسي منذ لقائي الأول به إن هذا الإنكار وحده سينقذني.

أسميت هذه المحاولة في إنكار عالم الداخل بالخلاص. ووجدت أن العالم جميلٌ حين لا يتساءل عن نفسه، حين لا يتغاضى فقط عن أشياء لا يفهمها بل ينكر وجودها من الأساس. القلق لا يمكن رؤيته، فهو غير موجود إذن، البطن المفتوح للعواطف لا يُنتن أنوف العالم المستقر، فالبطن ومن خلفه العواطف الشائكة غير موجودة إذن. كان الجمال مُستمدًا من الإنكار وقد انبهرت بقدرتي على كشف شيءٍ سهلٍ وفعّالٍ إلى هذا الحد؛ أنكرُ الأشياء فلا تعود موجودة. وعلى الرغم من أني كنتُ واعيةً لخدعة الإنكار إلا أني قبِلت بها بقلبٍ كبير، فقد بدا واضحًا أن الهناء حالة شعورية تبتدئ بتفكيرك بذات الطريقة التي يفكّرُ بها العالم من حولك.

اختبرت قوة هذه الإستراتيجية مما وجدت عليه ديدار في تعامله مع نفسه ومع العالم المتشكل بأناقة شديدة من حوله دون أن يحتويني هذا العالم عن سبق إصرارٍ حتى. انضممت إلى عالمه ذاك باسم الحب، لكني عدتُ القهقرى وخرجت منه بوجهٍ آخر أكثر تجعّدًا ويأسًا من وجهي السابق للحب.

فكرت مع الوقت أن تلك القوة، وتلك الخُطا الواثقة، وإنكار ما لا يبدو أكيدًا للعين، لا يخلقها الرجال أمثال ديدار لوحدهم، أي أنها ليست مبادرة ذاتية فردية من ديدار، ليست طَبْعًا أو ميّزةً متعوبًا عليها تخصه هو وحده، بل هي سمة تأتي في طردٍ مع مجيئه إلى العالم. ليس الرجل هو من يخلق تناسقهُ في كل مرة، بل يأتي إلى عالمٍ سبق أن تمهَّدَ بطريقةٍ تجعله متناسقًا ومنسجمًا معه.

«الكون عقلٌ كبير، تديره عقولٌ متشابهة. وخلاصي سيتحقق بحشر نفسي في العقل الكبير للكل»، هذا ما أخبرت به نفسي اللجوجة آنذاك وأنا مطمئنة لنتائج اختياراتي.

لم أفكر إلا مؤخرًا بديدار كشخص، كجزءٍ من كل. كان لسنوات بالنسبة لي كُلًا، ممثلًا عن الجنس الآخر، وهكذا كان حبي له عبارة عن مشروع اقتران بالجانب المُتماسك من العالم. وبشكل تراجيدي أصبح تناسق العالم مع الوقت هشًا وممتلئًا بالثقوب. بدا أن الماء المُتسرّب أسفل سطح العالم يهددُ بجديةٍ بهدم تناسقه كله وأن هذا الأخير لم يكُ متناسقًا يومًا، إنما كنتُ أُجهد نفسي لأقنعها بذلك. وبدا لي مع الوقت أيضًا أن ما أفعله في سبيل التناسق ليس هو الإشكال؛ بل فكرة أن العالم متناسقٌ في حد ذاتها. منذئذ أخذت كل شيء بمزيد من الحيطة والحذر،

فقد تولّدت خلف كل فكرة أو سؤال أو قول عبارات من قبيل: «لمَ قد يكون المتعارف عليه هو الحقيقة الأكيدة؟» أو «ماذا لو لاحقنا المعنى خلف كل هذا؟ إلامَ سنصل؟»

ربما لا تكون هذه الفوضى التي أعيشها في الوقت الحالي سوى مُخلّفات ذلك الاعتقاد المتهور الذي أرغمني على دفع الكثير في سبيل استرداد معتقداتي الأولى عن عالم غارق في الفوضى والتناقض. ربما لا تكون فوضاي الحالية المؤقتة سوى تراكمات للفوضى المتشعبة التي أغفلتها لوقتٍ طويل. وها قد أتت من جديد لتنتقم لنفسها.

حتى الكلمات بدت كأنها تفرض مع الوقت سلطانها وتثور على تدجينها الذي حاولتُه مع محاولتي الانضمام للعالم المتناسق لديدار. ففي الكثير من المواقف كنت أصمت ببساطة لأن العالم المتناسق لم يسمح لكلماتٍ مثل كلماتي بالحضور فيها، لم يسمح لي أن أنبش بكلماتي تصوراتٍ كان ينكرها العالم على طول الخط. ولذا فإن ديدار لم يسمع سوى القليل عن عالميَ المتضارب المخفي في جيب العالم الحقيقي. وفي أشد مواقفي ذاتيةً بدا أنه يقول لي: «توقفي عن اللعب، هذا العالم ليس عالم الاستعارات، كوني بقدر جدية هذا العالم.»

وأطعت. وتوقفت عن اللعب.

وها أنا أرى وأنا أكتب ما كتبته أن لديّ أسبابًا كثيرة لإعجابي ونفوري من العالم المتناسق للرجل. إنه عالمٌ جذاب؛ لأنه يتخذ كل أشيائه بجدية ويعتبر كل ما لا ينتمي إليه مجرد فقاعة يمكن تجاوزها بالنفخ عليها. وهو سبب لنفورٍ مقيت؛ لأن محاولاتي كلها في سبيل إيجاد أرضٍ لي في هذا العالم المتناسق باءت بالفشل، فبعد أن نُفيت

بلا محاكمة توجّب عليّ أن أقِرّ مع إقرارهم أن كل ما أقوله أو أفعله أو أرغب فيه لا يمكن أخذه بالجدية التي أدّعيها.

وبعكس ما بدا لي تناسق العالم في البداية، فَقَدَ بعد ذلك في نظري كل قوة وثبات وصار مجرّد تماسك أجوف وهش، لكن بفارق أنه لا يعترف أبدًا بهشاشاته أو بثقوبه اللا نهائية. كنت قد عُدت القهقرى، وأدركت أن كل إيمان بعالم منسجم مع نفسه، متناسق، وواضح وضوح آلة، هو وجهٌ آخر للهروب منه. وأنا رغم ما أبدو عليه من هشاشة لم أكن لأختار الهرب.

الوحش في الخارج/الوحش في الداخل

عمل ديدار كمحام قبل الحرب، اشتغل في مهنته لسنوات طويلة لكنه اضطر لترك عملهً، بالأحرى طُرد منه بعد أن بدأت الحرب بفرز الناس لصالحٍ وغير صالح. في الحروب تظهر قوانين جديدة لرفع أناس وخفض آخرين، كانت هُوية ديدار السبب في تصنيفه كغير صالح وطردِه بالتالي من عمله، فارتضى بعد يأسٍ العمل في معمل أحذية على أمل أن يعود يومًا ما إلى عمله السابق.

هذه الليلة كان عليه العمل في المعمل طوال الليل، هذا لا يحدث عادةً، لكن تحضيرات ملحّة لدفعة طلبيات جديدة في الغد استدعت بقاءه. لم أفكر في سوء أن يبقى بعيداً عني لليلةٍ كاملة، حسبتُ أنه لن يتجاوز سوء النهار، لكن حين هبط المساء بدأت براعمُ الخوف بالنمو في كل شقٍّ من شقوق البيت وصارت الغرف أنفاقًا معتمة بأفواهٍ كبيرة.

ما إن غابت الشمس حتى توجّهتُ إلى باب المنزل وأغلقته بالمفتاح مرة، فاثنتين، فثلاثًا، وأعدت الكرّة حتى احمرّت أصابعي من شدّة الضغط على المفتاح، لكني توقفت فجأة في وقتٍ لم يكن شعوري قد أوعز لي فيه بالتوقف. صارحتُ نفسي ببؤس أني أفعل شيئًا عبثيًا تمامًا، فمصدر الخوف لم يعُد من خلف الباب، بل إنه مُلازمي، إنه سلفًا في الداخل فلا طائل من إغلاق الأبواب في وجهه.

في صِغري، كنت مهووسة بإغلاق الأبواب، كان الوحش قادمًا على الدوام من الخارج، وكنت أتصدّى له بالمفتاح وبقوة ضغط يدي على الباب. كان زمنًا جميلًا، أمكنني فيه بحركةٍ بسيطة ومحسوبة إعادة الأمان إلى البيت والأسرة وحماية أبي وأمي من «الأشرار». كان هوسي بغلق الأبواب مصدر تفكهٍ لأبي وأمي؛ فقد شعرا أني أمارس مسؤولية اتجاههما رغم صغر سني. وحقيقةً أسرني وعافاني هذا الاستخفاف بطريقةٍ ما؛ إذ وجدت أنه لا يمكن حل الكثير من المسائل بالوقوف عليها وبالمواجهة والتصريح، بل هناك أمورٌ يتوجبٍ -على الأقل بالنسبة لي- تمريرها تحت سِتار الصمت وغطاء التفكه لإسقاطها من علياء الرُّعب الذي يكتنفها. لا يعني هذا أن هوسي بإقفال الأبواب كان وليد فترة وظروف محدّدين، بل استمر لسنواتٍ عديدة، إلى أن شذّبته الأيام وصيّرته حرصًا لا أكثر.

الآن عاد كل شيءٍ دفعةً واحدة، عاد الخوف الأسود بطريقةٍ فجّة... بجنونه المخزّن منذ سنوات، وأنا أعجز عن مواجهته أو السيطرة عليه بذات ترتيباتي وإجراءاتي الطفولية القديمة. عاد الخوف وليس هناك حولي مَن يتفكه عليّ، وهذا يبدو لي أشد إيلامًا.

بعد وقتٍ طويلٍ من العراك مع الباب توجهتُ إلى غرفتي والنوم يملأ جفوني ويفيضٍ. كانت العادة الروتينية هي أن أراقب تنفّس الطفلة لوقتٍ طويل، هذه الليلة تحوّلتِ المراقبة لتعذيبٍ حقيقي. أنظر إلى تنفّسها وألاحظ كيف يكون واضحًا ومرئيًا في بدايته ثم ما يلبث أن يهدأ ويختفي تقريبًا كأنها توقفت عن سحب الهواء أو ضخّه. أعرف حينها أنها استسلمت لنوم عميق، لكن شيئًا ما يُحرّضني ضد معرفتي وضد هذا الاستنتاج العقليّ الذي توصّلتُ إليه بسهولة، فأوقظها لأتأكد أنها لم تزل على قيد الحياة.

استمرت هذه الدورة الفارغة لساعات، كررت خلالها ما أفعله بآلية حتى قبل أن أستشير عقلي الصاحي لمرةٍ واحدة. استمرت الحال وشعرتُ بالسّاعاتِ تتقافز كحبّاتِ فشار ساخنة وأنا فمٌ كبير يلتهمها بلا رحمة.

لم أنم تلك الليلة أبدًا، ومع تباشير النهار وأولى خيوط الضوء تسرب إلى جوفي يأس وخجل عظيمان، تمنيتُ لو أنام مرةً واحدة وإلى الأبد.

كتابة ضد الغمامة

ضحكت من ديدار البارحة حين رآني أبكي لدى دخوله. فما إن رأى وجهي مكدّرًا -ويجب القول إن وجهي أكثر قطعة صريحة فيّ- ابتعد وهو يحاولُ أن يُظهر انشغاله. في عمق حزني ضحكت منه وقهقهت، ثم حين أدركت أني أضحك بينما يتوجّب عليّ البكاء من تعاستي، بكيت.

نقيم في الطابق الخامس من مبنى حديث البناء كما قلت. البناء أبيضُ، ناصع البياض من الداخل والخارج، والسلّم مرمريٌّ يغري المرء بالركض قفزًا على درجاته. في إحدى طرفي المبنى هناك سلم نجاةٍ معدني ولولبي الشكل. قليلًا ما أرى مثل هذه السلالم، يبدو أن شركات البناء تفكّر في سلامتنا. كنت أفكر في هذا الدرج أحيانًا كبديلٍ للنافذة، أفكر أن أضم يديّ إلى صدري وأطلق ساقَيّ للريح من هناك لأنزلق بحركة لولبية وأستقر في الأسفل دون عناء. تبدو فكرة غبية بفظاعة لكني فكرت أن هذه الطريقة أقلُّ إيلامًا لأني في سقوطي سأظل في تماس مع المادة بدل العوم المثير للغثيان للقفز في الهواء فيما لو اخترت النافذة. ويجب القول إني فكرت في هذا الدرج جديًا كطريقة للرحيل، غير أني لم أكن متأكدة من النتائج.

آه الرحيل، لمَ لا أقولها مباشرة؟ ما نفع التنميق؟ على من أضحك باختياري لكلماتٍ أكثر لطفًا؟

البيت مريحٌ جدًا ويجب القول إني كنت سعيدةً هنا على الدوام. كان النزول إلى الشارع يُسبب لي على الدوام فارقًا في النظر، إذ إن هذه البلدة من أكثر الأماكن التي رأتها عيني بؤسًا. فبالإضافة للبيوت الشعبية الفقيرة كانت مناطق واسعة من البلدة بمثابة مكبٍ للنفايات، حيث تتجمع النفايات القادمة من مدن عديدة في بقع واسعة في ثلاثٍ من مداخل البلدة وقد تحولت هذه المكبات إلى موطن لعب للصبية الصغار الذين كانوا يتسكعون فوقها حفاةً على مدار الساعة. وعلى الرغم من بؤس المكان، أو ربما بسبب ذلك، رأت فيه شركات البناء وجهة اجتياحٍ جديدة، فها هي الأبنية الحديثة تنبت تِباعًا مثل فطورٍ في أرضٍ رطبة.

لقد بدا هذا البناء الجديد الذي أقيم وسط بيوتٍ في غاية البؤس وفي منطقة شعبية كهذه كسنٍّ سليمة وحيدة في فم عجوز. ولذا فحتى جماله كان مُقلقًا ومتناقضًا في نظري؛ فما نفع أن أنعم بشقة نظيفة ومكان مريح بينما ما حولي غائصٌ في البؤس؟ إنها فروقاتٌ تذكّرني كل مرة أن العالم مكانٌ مُرعب حتى إن دهنّا جدرانه بألوانٍ بيضاء ناصعة.

طوال فترة إقامتي في هذه البلدة لم أتمكّن أو لم أنجح في عقد علاقة جوار مع أحد. وأقصد الجوار سكان الأحياء الشعبية، فالبناء الذي أقطنه كان خاليًا أغلب الأوقات تقريبًا، ذلك أن المنطقة برمتها لا تُغري المرء بالسكن فيها، فالأبنية الحديثة كهذه التي نقطنها تُعد باهظة الثمن بالنسبة للفقراء، أما متوسطو الحال والأغنياء فما كانوا ليسكنوا في مثل هذه المناطق الهامشية من دون حرج.

بدت لي البلدة طوال مدة إقامتي فيها مكانًا صاخبًا وحيويًا، فبالإضافة لأهالي البلدة كان هناك أيضًا نازحون كُثر قدِموا من مناطق

أخرى. كان بإمكاني تمييز أهل البلدة من الغرباء بسهولة كبيرة، إنهم يختلفون في كل شيء، لا يجمعهم سوى البؤس وسوء الحال. أما ما جعل صخبهم مبالغًا به، بل مخيفًا في بعض الأحيان فهو الخلافات الّتي كانت تشتعل بين الفينة والأخرى ويشارك فيها الكبار والصغار ليعدّوا في النهاية ضحاياهم كما يعدّون الخِراف.

في الشارع كنت قد تعرّفتُ إلى البعض من أهل البلدة، بدوا لطيفي المعشر لكن بقيت بيننا نظرة ارتياب لم نتمكن من تجاوزها. أكثر ما وجدته مميزًا في هذا المكان هو العدد الطاغي للأمهات، فقد كنّ - على غير العادة- يمضين وقتًا طويلًا خارج البيت. لقد غدون آباء وأمهاتٍ بين ليلةٍ وضحاها. من بين مَن تعرفت إليهن سيدة في منتصف الأربعين، أمٌّ لسبعة أطفال وتملك محلًا صغيرًا لبيع الخضار واللوازم المنزلية، امرأة ضخمة ومرحة، تستطيع مخاطبة الجميع بأسمائهم وتتمكن بلا حرج من التحدث بلغة الجميع وتفهمهم. زوجها مثل الكثير من رجال البلدة اقتيد للقتال، وبقيت المرأة تعيل أولادها في البلدة دون أن تبرحها يومًا.

لا أعرف ما الذي يدفعني لكتابة كل هذا، أشعر أن ثمة حاجة ملحة بي لتدوين أي شيء، بعيدًا كان أم قريبًا من حالتي. لا مبرر لي في هذا سوى رغبة ملحّة لافتراض حوارٍ مع أحدٍ ما. ولا غرابة في ذلك إذ أعتقد أحيانًا أن هناك عقلًا آخر يُفكر داخل عقلي، ولذا حين لاحت لي قدرتي على الكتابة كتبت دون تفكير. كنت بحاجة فقط لأؤكد لنفسي أن هذا الأمر لن يستمر، ولذا فقد وعدت نفسي أن أمزق هذه الأوراق كلها بمجرد انقضاء هذه الغمامة.

أنا حائرة بحق، أسميها غمامة لأني لا أعرف مايعتريني بالضبط. من الخارج تبدو الأمور على أفضل ما يرام، وما الذي يمنعها بحق الله من أن تكون كذلك؟ فأنا سعيدة أني وُهبت طفلة، وقد ترك لي ديدار حرية اختيار اسمها. من ثَمّ فإن عمل ديدار في معمل الأحذية هذا يدرُّ علينا مالًا لا بأس به، عوّضنا عن فترة اليأس التي تلت طرده من عمله ومكّننا حتى من توفير بعض المال للأيام القادمة. البلدة لم تعد موحشة وغريبة كما في الأشهر الأولى من إقامتي هنا، أشعر أني أنتمي للمكان رغم كل شيء.

في المساء، بوجود ديدار تبدو الأمور جيدة ولا يعتريني القلق كثيرًا، ولا خوف على وجه الخصوص. ففي هذه البلدة التي لم تصلها الحرب بشكل مُباشر يعيش الناس حياة عادية نسبيًا، يعملون، يتنزهون، يتخاصمون، يشاهدون التلفاز وينامون كأن الحرب لا تجري على هذه الأرض. وأنا أراقبهم من الشرفة أستطيع معرفة كم هم منغمسون في الحياة، بينما أنا مقذوفة بقوة خارجها.

لو تفهّم ديدار قسوة الشعور بالقذف خارج العالم لما تجاهل وجهي لدى دخوله البارحة إلى البيت، أعرف أن وجهي المُكدّر لم يعد يُريح الناظر له، لكن ما حيلتي؟

مستنقع للكلمات

تنتهي نصف معاناتنا إن تمكنّا من تسمية ما يؤلمنا، هذه هي الحال بالنسبة لي على الأقل. كنت دائمًا بحاجة إلى تسمية الأشياء بمسمياتها إذا ما أردت التخلص من ثِقلها ورهبتها. إنها طريقة لتثبيت الشيء في مكانه ونقله من المجهول إلى المعلوم. يمكننا التعامل مع المعلوم بيقظة واتزان أكثر، أليس كذلك؟

في التسمية ثَمّة سحر، سحرٌ غريب. مع التسمية يأتي التفسير، أو ظلُّ التفسير. هذا ما اعتقدته على الدوام. بتسمية الشيء أو بتحديده، بالإشارة أو حتى بالنظر إليه، تقترب من تفسيره، لا بد أن يكون هناك شيءٌ ما يُفسّر الأشياء الأخرى.

فمثلاً كل هذا السحر المحيط بي كان سيغدو أكثر توازنًا ولطفًا لو عرفت فحسب ما الذي أعانيه، لو أني وجدت تسميةً للخلل الحاصل. ها قد مضت على حالي أيامٌ وأسابيع طويلة، قضيتها كلها في قلق وقلة نوم وقلة شهية وآلام متفرقة في جسدي ووساوس شتّى. استيقظت في الكثير من المرات على عينٍ تترقبني وتدعوني للترقب، أفتح عيني، أنظر في نقطة واحدة وأثبّت نظري، حتى في الظلمة، ثمة ما يجبرني على تثبيت نظري على نقطةٍ واحدة. في النقطة التي أركّز فيها تشتعل الدوائر، الواحدة داخل الأخرى. تتحرك الدوائر وتتماوج كحرارة الصيف على رصيفٍ إسفلتي. تحثني العين المراقِبة على الاستمرار،

فأُبقي عينيّ مفتوحتين. تدمع عيناي، تحمرّان، تحترقان لكني أمنّي النفس بالخلاص إذا ما تابعت حتى النهاية. «سينتهي كل شيء ما إن أثبته بنظري»، هذا ما أقوله لنفسي مرارًا. كأن غموض الأشياء سينتهي بكشفي لها، أو العكس، كأن كشفها الزائد سيُغلِقها على نفسها ويجعلها وديعة وغير مؤذية.

لا يتعلق الأمر بما أعانيه هذه الأيام؛ فقد كانت لدي على الدوام رغبة ملحّة في كشف الأمور-أيّاً كان الأمر- إلى نهايتها، بل يمكن القول أني كنت مهووسة بمعرفة نهاية الأشياء حتى إن قادني الكشف إلى شكل وحشي، منفر ومزعج. الأمر بالنسبة لي أقرب لأسلوب حياة. ومنذ صغري لم أكن أعالج خوفي من الوحوش الكثيرة بالهرب منها، بل بتثبيتها بنظري. لم أكُ أغطي رأسي باللحاف أو أصرخ أو أستغيث، بل كنت أحاول البحث عنها بجدية فأعثر عليها ملتصقة بجدار أو مختبئة تحت السرير. وذات مرة أعدمتُ واحدًا، نفيته بنظرةٍ واحدةٍ ثبّتّها عليه لوقتٍ طويل حتى تلاشى نهائيًا.

لم يتوقف الأمر على الوحوش فحسب، ذات مرة أثناء عودتي من المدرسة تعرضت امرأةٌ شابةٌ أمام ناظري لحادث مرعب. كانت تهم بفتح باب سيارتها حين صدمتها سيارة مسرعة من الخلف. سقطت المرأة بنعومة وكأنها خرقة رماها أحدهم من الشرفة. سقوطها الناعم ذاك كان نقيض عنف السيارة التي ضربتها، وهذا هو بالتحديد السبب الذي جذبني إليها. تملّكني خوفٌ عظيم لكن قساوة المشهد بدت جذابة جداً. ابتعدت صديقاتي على الفور، لكني شعرت نفسي مُخدَّرة وأنا أسير باتجاه المرأة المرمية على الشارع. كان عليّ أن أثبّت نظري عليها، أن أقوض بالنظر -وحده- الخوف من جسدها الممرغ بدمائه

لأتمكن من التغلب على الخوف بداخلي. سرت إليها دون أن أحيد بنظري عن عظام ظهرها المحطمة ويديها اللتين سقطتا كغصني شجرة اقتُلعا للتو. كلما اقتربت أكثر خرج الخوف مني باتجاهها، ليتّحد الخوف وسببهُ في جسدٍ واحد، في هذا الجسد المُلقى أمام باب السيارة المفتوح. بقيتُ ثابتة لا أحيد بنظري عن جثتها إلى أن غاب عني وعيي وسقطتُ أرضًا.

في مثل هذه المواقف، كنت أتوصّلُ إلى طريقة في تثبيت الأشياء إما بالنظر الوقح إليها أو بإعطائها التسمية الحقة. بعد تفحّصي المركّز لجسدها وإغماءتي التالية لم يعد المشهد مخيفًا، نسيتُ فظاعته واكتفيت بروايته. والآن أعجز، كما لم تكن الحال يومًا، عن الإمساك بمعاناتي بوعي ودراية. أعجز عن الرؤية، أعجز عن التسمية.

كان يمكن للحال أن تكون أكثر صدقًا لو أني ظهرت بذات الحال في حضور الآخرين وغيابهم. لكن الواقع هو أني أظهر عاقلة في حضورهم ومجنونة في غيابهم. لا يمكنني بطبيعة الحال شرح كل هذه المسرحية الهزلية بالكلمات لأحد، فالكلمات لا تكفي وحدها لجعل حالتي قابلة للتصديق، الكلمات لا تعني شيئًا ما لم يختبر الآخر معاناتي ويراها بعينه. فقد قلت لديدار بالفعل صباح ذلك اليوم إني «مكتئبة»، ولم تكن ثمة كلمة أخرى أقوى أو أكثر أصالة لوصف حالتي بها. وعندما لفظتها: «أنا مكتئبة» بدت الكلمة -حتى بالنسبة لي- ثقيلة ثقل صخرة سيزيف في داخلي، لدرجة شعرت كأني أدفعها بقوته ذاتها لإخراجها من فمي، كأن إخراجها يعني خلاصي. وكما حال سيزيف حين يصل بالصخرة إلى أعلى القمة يفقد الفعل معناه فيتوجب عليه أن يعيد رفعها مرارًا وتكرارًا لينشأ المعنى من فعله، كذلك بدت الكلمة المنطوقة كأنها

تسلب معاناتي كل معنى وحقيقة. وكان عليّ إذن إعادتها وتكرارها مرارًا أو اختراع كلمة أخرى بديلة أكثر قوةً وفعالية.

بعد أن تمكنت من إخراج الكلمة الثقيلة «مكتئبة» من فمي راحت تتدحرج بخفّة على أرضية الغرفة بيني وبين ديدار. كان المعنى كله يتمثل في إيجاد معنى من كل هذا، والسبيل الوحيد المتوفر بين يدي هو الكلمات.

في حالاتٍ مماثلة، أجدني غالبًا مُرغمة، لا على إعادة الكلمة، بل على البحث مجددًا عن كلمة أخرى، أكثر قوة ربما، ولا أجدها غالبًا، فيتلقّفني الصمت وأنا في منتصف الطريق.

وهكذا فحين قلت لديدار إني «مكتئبة»، لم يتوقف عن شرب الشاي كما توقعت، ولم ينظر لي بعين الدهشة أو الرأفة كما أملت، لم يبكِ أو ينتحب، لم يأتِ ليربت على كتفي ويطمئنني، حتى أن كلمة «مكتئبة» انكمشت بخجل على نفسها وتيبّست كثمرة تفاح تجاوزت موسمها. بالمختصر، لم يحدث شيءٌ البتة.

أتخيل أنني لو سرت إلى حتفي، سيصرخ ديدار عاليًا بذات الصوت الواثق من نفسه قائلًا: «ولكن الأمر لم يكُ يبدو بهذا السوء. لو كان سيئًا إلى هذا الحد لكنت عرفتُ من تلقاء نفسي».

لكني لن أكون حينها هنا لأخبره أنه لم تكن ثمّة طريقة أخرى أكشف بها عن نفسي سوى بالكلمات. فإن كذّبها صرتُ بلا حول. بالطبع ليست هناك طريقة تدفع أحدًا ما للشعور بالآخر ما لم يصدق كلماته. إن الخيط الواصل بيننا هو الكلمات، الكلمات فحسب، وهذه قد فَسُدت تمامًا، لقد أسيء استخدامها على طول الخط حتى لم تعد تُحدث فارقًا سواء أقيلت أم لا.

أفكر كم نحن معدمون وقليلو حيلة. إن مادة التواصل وأداتها التي يمكنها أن تُثري تواصلنا ليست على قدرٍ كبيرٍ من الفعالية والجدية. في محاولتنا كشف ما نشعر أو نفكر به بكلماتنا نبدو كمن يودُّ إفراغ مستنقع كبير بواسطة ملعقة شايٍ صغيرة.

الأكاذيب البيضاء

لجأت بعد العديد من المرارات إلى حيلة بسيطة ولكن مُقنعة إلى حدٍ ما. كانت نافذة غرفة النوم حيث أقضي مع الطفلة جلّ وقتي مُقسّمة إلى شطرين، شطرٌ واسعٌ وكبير وآخر ضيقٌ وصغير: «لن أفتح الجانب الواسع لأنه كبيرٌ وثقيل وفتحهُ ليس سهلًا»، هذا ما قلته لنفسي. ليس منطقيًا أبدًا في عُرف العالم ألا نفتح نافذة لأنها كبيرة وثقيلة، لكني أقنعت نفسي بذلك وبهذا أسقطتُ احتمال فتح هذا الجانب من النافذة.

أما ناحية النافذة الضيّقة فقد قررت أن أسدل عليها الستارة التي كنتُ قد صنعتها قبل أيام من قطعة قماش بنية اللون كنت قد اشتريتها ذات يوم لأخيط منها فستانًا. قلت لنفسي وأنا أبتعد خطوة لأتأمل إنجازي عن بعد: «إنها لا تبدو كنافذة حتى، هناك حائط خلف الستارة، لا شيء سوى الحائط».

أعدتُ على نفسي من جديد وبصوتٍ أعلى قليلًا: «هناك حائط خلف الستارة، لا شي سوى الحائط».

انطلت عليّ حيلتي وقضيت أيامًا بعدها لا أهاب الدخول إلى غرفة النوم ولا يصيبني الذعر جراء النظر إلى النافذة. كان عملًا بارعًا ما قمت به.

هشاشة

كنتُ طوال هذه الفترة أتعامل مع السيدة الدخيلة تعاملي مع أي غريب. لا أتساءل عن سبب وجودها، ولا أسأل نفسي إن كان يجوز لها البقاء أصلًا. لا يعني ذلك أني أرتاح لها، ولا أني أخافها، كل ما هنالك أنها تبدو لي كتحصيل حاصل، كشخصٍ لا يمكنني إخراجه ببساطة من منزلي. وقد لاحظت مساء اليوم أنه في حال حضور ديدار يصبح وجود السيدة أكثر ثقلًا، وأبدأ أفكر بشجاعة في جدوى وجودها، لكن حين يخرج ديدار أتقبل حضورها بلا أي شعور، لا خوف، لا خشية، لا انزعاج، كما أني لا أقوم بأية محاولة للهرب منها عندما تحضر طالما أنها لا تحادثني أو تتدخل في سير حياتي.

لا يبدو لي أني مريضة، بل أعتقد أن عقلي صاحٍ تمامًا، فأنا أرى ما يحدث وهذه الرؤية هي في حد ذاتها دليل صحتيٍ العقلية والنفسية. لكن هذا ليس كلام ديدار، يقول إني صرتُ هشة ومتضعضعة وإني ككل سيدة قوية قد سقطت مع أول تجربة، يقصد تجربة الولادة ومسؤولياتها. فعند ديدار الحياة تجارب، وإن سقطنا في إحدى التجارب فهذا لا يعني أننا نحتاج ليد العون، بل يعني أننا نستحق أن نبقى في مكاننا لأن نهوضنا يتوقف علينا وحدنا. هذا كلامٌ جميلٌ بالتأكيد، لكنه غير إنساني.

أتفهّم حجته في ذلك لكني أعرف أن ثمة أشياء لا يمكن قياسها بهذه الطريقة البسيطة وليست كل أنواع السقوط متشابهة. لكن بطبيعة الحال أعجز عن إقناع ديدار بأحقية وجهة نظري، ذلك لأني أنا نفسي لا أفهم لِمَ يبدو سقوطي مدويًّا إلى هذا الحد.

أخرج من نقاشاتنا العقلية عادةً أكثر هشاشة وخيبة، فمهما استطعت الحديث بتجرّد وعقلانية عن حالتي ومهما وافقت ديدار على أقواله أظل أمنّي نفسي ببعض الاهتمام منه دون تعليلٍ أو شرح. أحتاج لتفهّم لحالتي أكثر من حاجتي لفهمها. وديدار وحده مَن يستطيع أن يساعدنيً على تجاوز هذه الغمامة بسلامة، فهو كل من تبقّى لي. أمي وأختي الصغرى توفيتا منذ زمن بعيد وغاب أبي في أول فرصة سانحة. كان سهلًا على أبي اختيار عائلة جديدة بعد رحيل أمي، في حين صعُب عليّ -وإلى الآن- اعتباره غير موجود. لي أخٌ مهاجر وأختٌ ثانية انضمت لصف أبيها.

أفكر أحيانًا أن وجود السيدة لا يمكن أن يكون بلا مبرر، ربما هذه هبة من السموات ببساطة، لِمَ يصعب تصديق مثل هذه الهِبات؟ أفكر بالهبة بينما أرى السيدة تروح وتجيء في الغرفة أمام ناظري، لا تتعثر بشيء ولا تقول شيئًا، أنظر إليها وأبتسم لكنها لا تلتفت إليّ، يذهلني صبرها وثباتها. على يميني يتمطّى ديدار وهو يقلّب قنوات التلفاز، سينام على الأريكة إن استسلم دقيقة واحدة لهذا السلام المحيط به.

مثالية الصلب

يقول ديدار أنه يفهم تمامًا ما أمر به، لكني أجزم أنه لا يفهم، إنه يريد أن يختصر الطريق على نفسه بمنعي من طرح المزيد من الأسئلة وإثارة المزيد من المواضيع. حتى إني أتساءل أحيانًا إن كان هو أيضًا خائفًا مثلي. ذلك أن طريقته في تجنب أي كلامٍ في العمق معي توحي بهروبه، ولِمَ سيهرب إن لم يكن خائفًا مثلي؟

لا يعني خوفه أنه يقاسي التخبط مثلي في ذات المستنقع، بل يبدو على الدوام بعيدًا. إنه لا يفهم حتى ما يُقال له، ثم كيف يمكنه أن يفهم؟ إن فهمه عقليٌّ، يعتمد كليًّا على عقله الذي يقول له بدوره بكل بلادة إن الأمور سليمة لأنها يجب أن تكون سليمة. لكن مثل هذه الأمور لا تُفهم بالعقل بل بالتجربة. هل عاش تجربة كتجربتي؟ وإن كان مَرَّ ببعض العوائق في حياته وأحس بحزنٍ ما من جرّائها كيف يعرف أن الأمر واحد؟ هذا إن كنا نستطيع أن نسمي ما أمر به ضيقًا أو حزنًا.

ذات يوم حين اشتد الجدال بيننا قفز من فوق الصوفا قائلًا:

- أعرف ما علتك. علتك أنك لم تكوني تودين أن تهبيني طفلًا، هذه هي كل المسألة.

صحيح، صحيح كنت أود تبني طفل من الميتم وأنا نفسي فوجئت من رغبتي تلك. ومع أنه يُمنع قانونًا وشرعًا تبني طفلٍ هنا، وهذا أكثر شيء مخيب للآمال رأيته خلال عملي، إلا أني سمعت في الفترة الأخيرة أن ثمة حالات تبنٍّ حصلت دون موافقة قانونية. وفي أسوأ الأحوال كنت قد ارتأيت تبني طفلٍ دون ادعاء نسبته لعائلتي. بدأت القصة في السنة الثانية لعملي في الميتم. ففي إحدى الأيام اضطررت إلى النوم هناك لأن الطريق إلى البيت كانت مقطوعة بسبب المعارك اليومية. تطوّعت بتحضير الأطفال الصغار للنوم وحين آووا إلى الفراش وأطفأنا الأضواء لياموا، أحسست بالمرارة تصعد من معدتي لتتسلق وجهي فتجعده، فلا يد أمّ أو أبٍ امتدت إلى هؤلاء الأطفال لتداعبهم، لا أحد قبّلهم قبلة ما قبل النوم ووعدهم بالحب وبصباح مشرق. لم يسألهم أحدٌ كذلك إن كانوا يرغبون في قول شيءٍ أخير قبل النوم، أو إن كانت لديهم شكوى، أو فيما إن كان أحدهم حزينًا أو راغبًا في شيءٍ بعد. كان الأمر آليًا أكثر مما يمكن لأحدٍ احتماله. بقيت لعدة دقائق أراقب الأطفال وهم يتقلّبون في أسرّتهم، والضوء الخافت القادم من النافذة كان أكثر كآبةً من أن تحتمله حتى نفسٌ بشرية راضية. لم أفهم كيف تم تصميم هذه الغرف ولِمَ لَمْ يمتلك أحدٌ بُعدَ نظرٍ لجعل هذه الغرف محتملةً ومقبولةً، فالنافذة العالية في غرف النوم والمطلة على الحديقة الخلفية الصغيرة للميتم كانت تسمح لضوء الشارع الأصفر بالتسلل إليها مباشرةً، ولكنه بدلًا من أن يبدو مريحًا كضوء القمر بدا ثقيلًا جدًا على النفس. ربما لم ينم الأطفال هنا يومًا مدفوعين بتعبهم بل برعبهم من الأضواء الصفراء الكئيبة للشارع.

خلال الدقائق الأولى لنومهم بدأت أسمع أنين أحد الأطفال دون أن أميزه، ثم صوت بكاءٍ متسارع وقصير انتهى بعدها بصمت، تلته أنّات كثيرة، متقطّعة ومترددة. كان الأطفال قد استسلموا للنوم وأحلامه وكوابيسه. لم تمتد يد أم للغرفة لتسقيهم ماءً أو لتضرب طرف السرير كنايةً عن ضرب الكابوس لردعه عن الدخول إلى الغرفة ثانيةً. في الميتم، حيث عدد الأطفال كبير، لا يتم الالتفات لهذه الشؤون التي يعتبرونها صغيرة.

حين رجعت في اليوم التالي إلى المنزل أخبرت ديدار عن رغبتي في تبنّي طفلٍ من هؤلاء الأطفال، وكنت قد فكرت ليلة أمس بفتاةٍ ذات عام واحدٍ شوهِدت ملفوفة في ثياب الرضع أمام باب إحدى المدراس، وكأنّت آنذاك في شهرها الثالث تقريبًا. رجّح الناس أنها ربما أنقذت من انفجار سيارة على الطريق بين مدينتين إذ بدت غريبة عن المنطقة وقد أودعت الميتم بعد أيامٍ قليلة من ذلك الانفجار.

- أعرف أنك متأثرة بما تشاهدينه كل يوم، لكن التبني غير واردٍ لديّ.

قال ديدار. وقبل أن أرد بشيء أضاف:

- لا يجب أن يبلغ بك الحماس هذا الحد من التهور. لا أستطيع حتى التفكير في الأمر. إنها لن تكون ابنتنا في النهاية.

كانت شاشة التلفاز حيث يتابع ديدار الأخبار كل يوم تعرض أشلاء أناسٍ سقطت القنابل على منازلهم وكان البحث عن الجثث لا يتوقف، بينهم أطفالٌ من مختلف الأعمار تلتقطهم الأيدي المُنقذة كأنهم قططٌ صغيرةٌ في بركة دم.

- الطفلة يتيمة ولن يخرج أحدٌ يومًا ليطالب بها، إن استمرت الحرب أكثر سيتخلى الناس عن أولادهم.

- ليس السبب أن يُطالب بها أحد، أريد طفلًا من صلبي.

- ماذا يعني صلبك؟ بعد أن ننجب طفلًا إلى هذا العالم، هل يهمُّ من أي صلبٍ هو؟ هل يهمُّ هذا العالم المجنون ذاته من أيّة أصلابٍ يأتيه القادمون؟ قلتُ بحنق.

- ولم تتخذين دور المُنقذة؟ هل بإمكان أحدٍ تخليص العالم بمثل هذه العواطف؟

- فلتخلّصه بالعقل إذن. تبني طفل يتيم هي قمة العقلانية.

ساد صمتٌ طويل بيننا، لم نكن نحقد على بعض، بل بدا أننا نفكر بما نقوله، فهذه قضية لم نفكر بها يومًا. قلت بعد دقائق:

- يمكننا أن نفكر بطريقة مختلفة قليلًا، خاصة أننا بحاجة لطفل. لا يهمّني شخصيًا أن تخرج الطفلة من رحمي. يكفيني الحنان الذي ستغمرني به إن صارت فردًا من عائلتي.

- أنا تهمني وتساوي عندي الكثير. كلامك مثاليٌ جدًّا.

- أرى أن مطلبك أكثرُ مثاليةً من مطلبي، إنها مثالية خطرة أن نتمسك بإنجاب طفلٍ بهذا العناد بينما نستطيع إنقاذ طفلٍ آخر. بل إن هذه أردأ أنواع المثاليات، مثالية الصلب، لكنك ترددها كالكثير من ثوابتك.

أردت أن أخاطب قلبه، فأضفت:

- انظر للأمر بعين أخرى، سننقذ الطفلة من حياة ستكون كلها تعبًا وشقاء، وستحبها، أنا متأكدة. وضع طفل آخر في هذا العالم الشقي ليس سوى جريمة مُجمّلة.

بعد نحو عشرة أيام من ذلك الحوار غير المكتمل استيقظنا صباحًا. حضّرتُ القهوة وكنا نهمُّ بشربها على عجل قبل خروجنا حين قال لي بكدر: «سأفكر في الأمر».

كنت مندهشة بحق؛ إذ لم يكن يبدو أنه يفكر في الأمر بتاتًا. أخبرته أنني أستطيع تدبّر أمر لقائهما ولو من بعيد. وكان له ذلك. إذ اتفقنا أن يزورني في الميتم في الساعة الثالثة من بعد الظهر، في وقت مراقبتي للأطفال في حديقة الميتم. كانت الصغيرة تلعب بالقرب مني، مد لها ديدار يده فتسلقتها، وضحكت كما يضحك الطفل لأبيه تمامًا. عند تلك اللحظة كنت متأكدة أني حققت ما أحلم به، وأن دخول الطفلة إلى منزلنا مسألة وقتٍ ليس إلا.

تركني ديدار بعدها أتابع عملي وفي المساء التقينا لكنه لم يقل شيئًا، وعندما لاحظ أني أهمُّ بالحديث ادّعى النعاس وذهب للنوم. لم أستطع التحدث في الأمر بعد ذلك، بدا أن المسألة تطوّرت بسرعة لتصبح جرحًا كبيرًا داخلي وبقيت نظرتي للطفلة نظرة أمٍّ أُرغمت على التخلي عن طفلتها.

قضينا بعدها شهورًا من القطيعة. منذ مسألة التبني تلك، حتى عندما كنت أحاول النسيان، لم ينسَ ديدار الأمر.

ما فائدة الصحوة؟

أتذكر فجأة أنني بحيلتي منذ أيام أسقطُت احتمال فتح النافذة، لكني لم أمنع شيئًا في الحقيقة. لم يزل الاحتمال يترك الباب مشرّعًا على الفعل، لم يزل بإمكاني بعد فتح النافذة، ولم تزل هذه تستعرض نفسها بوقاحةٍ كل يوم. يمكن لأي شيءٍ أن يحدث، أنا حرة أكثر مما أتخيّل.

أسأل نفسي: «هل نغلق نافذةً عادةً لنمنع انضمام العالم إلينا أم لنمنع أنفسنا من الانضمام له؟» يحيرني السؤال لأني بدأت أعتقد أنني أغلقها لأني أهاب العالم الخارجي أكثر من الداخل، وأن مسرحية القفز وتلك التراجيديا كلها ليست سوى تمويهًا لإبعادي عن الخارج.

أثقل هذا التفكير رأسي، قمت عن السرير، ذهبت إلى النافذة، شددت الستارة البنيّة الصغيرة، وأكدت لنفسي مجددًا عبثية فتح الناحية الواسعة الثقيلة. عليّ الاستمرار بخداع نفسي. ما فائدة الصحوة؟ ما فائدة أن أموت لأثبت أن كل احتمالٍ هو إيجاب. أنا أحتاج إلى نفي، أحتاج إلى عمى.

حيادية العالم

قبل عدة أعوام من الآن كانت الحال أفضل بكثير، ولأقل كان كل شيء حياديًا، فالعيش يكون كما يجب حين يكون حياديًا، أما حين تسوء حالنا فعندها فقط نكون منتبهين، مفتوحي الأعين على فجوات الحياة وثغراتها.

تعود هذه الأفضلية لحياتي السابقة ليقظة مشاعري ونشاط ذكرياتي وقدرتي على استعادتها؛ إذ يحصل عادة أن أستعيد الماضي أو لحظة منه كقطعة حياة متكاملة: قطعة من زمان ومكان وشعور، حتى تلك الأيام الطاعنة في القدم، العائدة لطفولتي، أتذكّرها بمذاق محدّد يخصّ تلك الأيام. على سبيل المثال، هذا يومٌ شتويٌّ بارد من أيام طفولتي، أعود من المدرسة وأنزع عني الحقيبة والثياب، أعدُّ بلمحةٍ واحدة عدد قواطع الكهرباء في مدخل البيت، إنها خمسة، هكذا جعلت من عدّها عادة، عادة بلا أي نفع. أتوجّه بعدها إلى غرفة المعيشة في الطابق الأول، أنبطح أرضًا أمام التلفاز ريثما تحضّر أمي حساء البطاطا بالطماطم وإلى جانبها عيدان البصل الأخضر. يبتدئ الأمر ببرودة أسحبها معي من الخارج لتشيع بعدها الحرارة في جسدي كاملًا. لم أتذكر يومًا تلك المرحلة وذاك اليوم بالذات دون أن أستشعر طعم البطاطا والبصل في فمي وأحس بوخزةِ بردٍ تليها لحظات ممتدة من الدفء المريح.

تأتيني عادة مثل هذه الذكريات كباقة متكاملة، كطقم فناجين قهوة للاستخدام الشخصي دون أن ينقصها شيء. أستطيع أن أقيس تعاسة اليومِ أو سعادته بمقدار عيشي للحظات الماضي من جديد، إذ ما دُمنا نتمكن من تعرّف مشاعرنا وكشفها وتذكرها تجاه ماضينا كما تجاه حاضرنا، فهذا يعني أن الأمور في نصابها الصحيح. لكن ما يحدث الآن، ويضيق من جرّائه صدري، هو أني رغم استعادة المكان والزمان أعجز عن استعادة شعوري حيالهما.

لا يعني هذا أني أتوق إلى العيش في الماضي أو أني أحرص على استعادته كاستعادة مجد. كل ما في الأمر هو أني أود حقن هذا الحاضر الفارغ بإبرة الضرورة التي قد تشفي عللي، فعادةً ما يكون النبش في الماضي ردة فعلٍ مباشرة لفراغ اللحظات الحاضرة. وهذا هو حالي بالضبط.

حتى وأنا أكتب فتاتًا من ماضيّ الذي أعرف، لا أبتغي سردًا لمجرد السرد -ولم قد أفعل ذلك وأنا لا أكتب إلا لنفسي؟- كما أني لا أطمح إلى استعادة لحظاتٍ انسحبتْ من المعركة كجنود مهزومين، بل أسعى لاختبار قدرتي الشعورية على تذكّر الماضي إضافة لإيجاد سبب للاستمرار في الحاضر. هكذا ببساطة.

حين أعي قليلًا أمنيتي في استرداد الماضي، أكتشف سُخف ما يمكن لماضيّ أن يُمدني به، إذ فيم سينفعني الخرط في بابٍ عتيقٍ صدِئ؟! في الحقيقة هذا جهد مهدور: فمن جهة أنا أحمل الماضي معي ولو أنكرت، وأكوّنه كما يكوّنني. ومن جهة أخرى ماضيّ ماضٍ فقير، فلا أسرار ولا أحاجي، ولا مغامرات مثيرة ولا جرائم ولا قصص حب

ملتهبة ولا أية علاماتٍ فارقة. لم تكن أيامي أكثر من مجموعةٍ من أوراق روزنامة مكدسة تتشقق في بعض المواقع منها لتترك شيئًا شبيها بالحلم، شبيهًا بمد العنق خارج نفق.

كنتُ موجة ناعمة ووحيدة، وكان النهر الذي ضمني هادئًا... هادئًا على الدوام.

كابوس

كان حلمًا غريبًا ومخيفًا، كابوسًا. كنتُ مُقدِمة على خطف الطفلة، تلك التي فكرت يومًا بتبنّيها من دار الأيتام، ورغم أن الطفلة قد كبرت الآن إلا أني رأيتها صغيرة في الحلم كما كانت عندما فكرت بتبنّيها. حملتها بين ذراعيّ وركضت مسرعة كي لا يراني أحدٌ من القائمين على الميتم، وعندما هممت بقطع الشارع رأيت سيارة مسرعة كالبرق تتوجه نحوي، وبدلًا من أن أتراجع أو أركض وقفت في مكاني متأملة ثم أسقطت الطفلة كأني أقدمها طُعمًا للسيارة لتتجنبني، لكن ما حدث هو أن السيارة أتت على كلينا ودهستنا. استيقظت فزعةً أتصبب عرقًا، وعندما أدركت أنه مجرد حلم بدأت بالبكاء براحةٍ أكبر، وقد لاحظت أن صوتي يتصاعد كنوعٍ من النداء على أحد. لم يأتِ ديدار لطمأنتي، ربما لم يسمع، فمنذ أيامٍ ينام وحيدًا في غرفة المعيشة ويتحاشى قدر المستطاع الحديث معي. وللمفارقة فقد كنت بحاجة لمستمع لأبكي بالقوة التي أرغب بها، ربما هذه هي العادة أصلًا، أننا لنبكي كمًا يجب نحتاج إلى مستمع وإلا فما الداعي لبكائنا، وما جدواه؟

قال لي ذاك اليوم:

- تحدثي كما يتحدث الناس العاديون، حدّثيني عن وصفة طعام، عن خبرٍ سمعته، عن شيءٍ تودّين إضافته إلى البيت لتحسنيه.

- وما بال أحاديثي الآن؟ أقصد ما الفرق؟

- الفرق كبير. كفّي عن التذمر والخوف والانزعاج. حاولي، تحدثي إليّ كما تتحدثين إلى صديقة. هاتي مواضيع يمكننا مناقشتها.

يعطيني ديدار صورة شاملة عن حالتي بين الحين والآخر. وهذه الصورة الشاملة هي فحوى حواراتنا عادةً. يبدو أني كففت عن طرح مواضيع يمكن مناقشتها، وأني غائرة أكثر من اللازم في أشياء تخصني أنا وحدي. يبدو أني لم أعد أنتبه لنفسي، ما الذي ينقصني؟ تبدو أموري كما يجب أن تكون وأتمتع بالكثير من وقت الفراغ لأقوم بنشاطٍ ما وفوق ذلك بدأتِ الطفلة بالنوم لوقت أطول خلال الليل. لا يجب عليّ الشكوى. ولكن....

ما ثبّت حب ديدار في قلبي قديمًا كانت قدرته على الإصغاء. يصبح الحديث معه فناً رفيعاً من التواصل، إذ لا يدلي بدلوه إلا حين يكون مُستمعه في حالة لا يمكنه معها إضافة المزيد. عندها يتدخل وما أجمله من تدخل! لأنه يبدأ غالبًا مما انتهى إليه الآخر وهذه مقدرة لا يمتلكها الكثيرون. من ثمّ فإنه لا ينفي ولا ينكر أي شيء من أقوال مستمعه في المرحلة الأولى، لكن يبدأ بعدها بهدوء بتفنيد ما يستدعي تفنيده والإبقاء على المعقول منه.

يلجأ الناس عادة في حواراتهم إلى خلط الأمور، وأكثرهم ذكاءاً من يخلطها إلى الدرجة التي تترك خصمه عاجزًا عن فك خيوط النقاش من بعده. مع ديدار الأمر مختلف، كنت أرى الخيوط وهي تترتب أمامنا نحن الاثنين، مع الاشتباك ليس ثمة حل، علينا أولًا فكّ الخيوط.

لكن كل ذلك مضى، ديدار الآن شخصٌ ملول، تتحرك عيناه في كل مكان وأي مكان أثناء حديثي كأنه فاقد لتركيزه. يمكنه أن يضيف

أي شيء لمجرد إقصائي وتحريفي عما أود قوله، وللغرابة فإن العناد يدفعني أكثر فأكثر إلى التمسك بما أقول، كأني أسعى لسحب اعترافٍ منه بأهمية قولي أكثر من سعيي لقول ما عندي. وهكذا فنحن لا ننهي حواراتنا عادة بل نكسرها، بالأحرى تنكسر من تلقاء نفسها.

إن توجّب عليّ تحديد الخلل المستجد في ديدار فسيكون نفوره من كل الأحاسيس. يبدو كأنه يعاملها كلها بالدرجة نفسها: الحب، الكره، الشفقة، الرحمة، الحنان، التعاطف، التفهم، النفور، الاشمئزاز... يضعها كلها في كيس من البلاستيك ويرميها بعيدًا، وهكذا يخنقها في ذات الوقت الذي يبعدها عنه. لكن لم يُؤلمه الإحساسُ بالذّات؟ لا أعرف. أجده عاجزًا أحيانًا، وناقمًا أحيانًا، وبخيلًا وجاهلًا جهلًا مدقعًا في كل ما يتعلق بالأحاسيس في أحيانٍ أخرى. لا يمكنني البت بثقة في صحة كل هذه الأمور فأنا نفسي مضطربة وأتغير بين الساعة والساعة.

رغم محاولتي تجاهل ما كان يرمي إليه بحثّي على التحدّث كما الناس العاديين، إلا أني فهمت ومنذ البداية مقصده. ديدار يائس ويسخر من انغماسي، وقد قلت له سابقًا أني لا أفتعل شيئًا، بل تُخلق التشوشات فيّ رغمًا عني، أحاول الهروب من هذه الدواخل المتعددة لكني أفشل. فما كان منه إلا أن قال: «حتى وأنت تصفين الأمر تنمقين قولك؟ لا يمكنني تصديق أنك تشكين من شيء وأنت تعتنين لهذه الدرجة بكلماتك وتفتعلين تنميقها وتزويقها».

الحقيقة أني كففت مذ ذاك عن الحديث عن ضيقي، لأن كل جملة أردت قولها ودارت في عقلي كانت من ذات نوعية هذه الجملة. فإن نظرت للأمر بعين ديدار، فلا شك أني سأستفرغ أنا أيضًا من جراء هذا

التزويق اللغوي. والأكثر من هذا، فما إن وضعتُ نفسي في مكان ديدار -وهذا شيءٌ أفعله بسهولة كبيرة- حتى صرت أؤمن أن ما لا تستطيع قوله بكلماتٍ واضحة ومألوفة، لا وجود له. إنها طريقة رائعة للإنكار. تكفُّ الأشياء عن الوجود متى ما كفّتِ اللغة عن التصريح بها، كل ما هو خارج اللغة أو عسيرٌ عليها لا ينتمي للعالم. حل سهلٌ آخر من حلول العالم المتناسق لديدار!

أعرف أن هذا منطقيٌ ومريح، أو مريحٌ لأنه منطقي، أو منطقيٌّ لأنه مريح. لكني أعرف، لا بل أشعر، فالشعور أكثر سِعة من المعرفة، أن ثمّة أشياء لا تُقال، ولا تمرُّ باللغة. ومع أني لا أعتقد أن عندي أشياء كثيرة وعظيمة أخبر الآخرين بها، إلا أني أحسُّ بقوة بهذا العائق بين ما أشعر وبين ما أقول. وأتخيل أن الحال كانت ستكون أفضل لو أسعفتني الكلمات على التصريح بما أود -بالضبط- الإفصاح عنه، أو لو كانت ثمة طريقة أخرى نُفصح بها عمّا نريد دون المرور بالكلمات.

يبدو أن نفور ديدار مني عائدٌ لنفوره من كلماتي، من اختيار كلماتي أو من مضمونها. لا فرق كبير على أية حال. وهذا النفور هو الذي دفعه للنوم في غرفة المعيشة بعد خلافنا الأخير.

أتوقف عن البكاء وأستلقي من جديد في فراشي. أميل برأسي جهة سرير الطفلة فأراها تتحرك، حان وقت استيقاظها. أما طفلة الميتم فربما تنعم بالنوم في فراشها أو تمدّ رأسها نحو سرير صديقتها وتتحادثان وتضحكان بصوتٍ خافت كأنهما حققتا نصرًا باستيقاظهما قبل الآخرين. أتخيلها هنا، ترتدي ثيابًا تنكرية تمثّل رائد فضاء. تدعوني للّعب فنركب معًا مركبتنا الفضائية التي صنعناها من إسفنجةٍ وغطاء سريرٍ ووسادتين. ننطلق عبر النافذة المشرّعة على الخارج.

يتعلّق ما تريدُ قوله بطريقة قولك له... (أحدٌ ما قال هذا)

لنبدأ من جديد.

تنام ماف عادةً دون الحاجة لهزها. لكني أشعر بعزاء وراحة حين أهزها في سريرها الخشبي الذي أهدتني إياه صديقتي في الميتم كتميمة لجلب الحظ وحملي بطفل. كان هذا قبل سنوات. سرير خشبيٌ مصنوع بيدٍ غير محترفة، وقد عنَى لي الكثير دائمًا، لدرجة أني كلّفت أحدًا بنقله لي من منزلي القديم بعد هجرنا له. أعتقد أنه عنى الكثير أيضًا لصديقتي التي وهبتني إياه مبتسمة وهي تقول: «لن ينمو طفلٌ كما يجب ما لم ينَم في سريرٍ خشبي من هذا الطراز».

وبالفعل أجدهُ حميمًا ودافئًا رغم صنعته البائسة.

هذه الظهيرة بدأت بهزّ ماف في سريرها، ووجدت في نفسي القوة لأغني لها، ربما لأول مرة. بدأت بدندنة الأغنية التي بدت مثالية في هز الطفل، أغنية «ده لوري» كما سمعتها من أمي، حين كانت تظن أنها تحقق شيئًا لنفسها خارج أسوار منزلها بحفظ قصائد الشاعر جيكرخوين والاستماع للأغنيات.

De lorî, lorî kurê min lorî

Bavê te kuştin dayik bi gorî[1]

توقفت فجأة؛ إذ بدت الأغنية التي سمعتها مرارًا دون انتباه أكثر توحّشًا من أي وقتٍ سابق. تُخبر الأم في الأغنية رضيعها وهي تهزه أن أباه قد قُتل. كيف نُخبر طفلًا أن أباه قُتل ونتوقع منه أن ينام هانئًا؟ هل نهيئه لمصيره القادم؟

أنا ابنة هذه التراجيديا الحديثة القديمة إذًا، ابنة هذه الأغنيات، فلا عجب أن شرخ الروح ملازمي على الدوام.

ربما لم تخطر لي هذه الأغنية عبثًا. إني منتبهة أكثر من أي وقتٍ مضى للكلمات ولبشاعتها وعُنفها ولا منطقيتها وسهولة قولها. كأن الكلمات تُخزّن العالم فيها، وتطرحه من منافذ لا مرئية على الفور.

---

1 من قصيدة للشاعر الكُردي جيكرخوين (1903 - 1984) الذي درس الفقه الإسلامي وكتب دواوين شعرية كثيرة حافظ فيها على النظم الكلاسيكي للشعر متنقلًا بين الواقعية والرومانسية. نُفي وعاش في دمشق وستوكهولم وكان منخرطًا في العمل السياسي في أغلب محطات حياته. لهذه القصيدة طابع قومي كما أغلب قصائد الشاعر، إلا أن الحدود غير الواضحة بين القومي والعاطفي الإنساني هي سمة الشعر الكردي عامةً. لذا فالقصيدة مكتوبة على شكل تهويدة نوم، وتنبئ الطفل بمستقبل البطولة الممزوجة بالدم وتهيئه لدروه كحارس لقوميته.

لمَ هذه النافذة بالذات؟

حواف نافذة غرفة نومنا خشبية، بنية اللون، حفظت عدد الألواح التي تشكّلت منها لكثرة ما استندت إليها. لم أرَ الكثير من النوافذ ذات الأطر الخشبية في حياتي، على الأقل لم أرَ واحدةً عجيبةً كهذه. فكرت أنه لو كانت النافذة مؤلّفة من جزأين أو طبقتين؛ منهما مصراعان خشبيان ينفتحان إلى الخارج، وآخران زجاجيان ينفتحان على الداخل على عادة النوافذ كلها، لكان الأمر هيّنًا عليّ. نافذة معتمة ليست نافذة. هذه النافذة مضيئة ومفتوحة على الخارج بشكلٍ فج. هذا أسلوب حديث في التصميم لم أعهده سابقًا في كل البيوت التي سكنتها أو زرتها. رأيت في الماضي نوافذ بمصاريع حديدية وأخرى بمصاريع خشبية، لكن هذه النافذة العارية بلا مصاريع تبدو لي فجة بشكل لا يُحتمل.

الغريب أن الشرفة الواسعة المكشوفة كاملًا على الخارج لم تظهر لي يومًا كوجه تهديد. لا أعرف لِمَ بالضبط. جربت وسائل أخرى للموت أو فكرت فيها على الأقل، لكن خوفي العظيم كان من النافذة، وخاصة نافذة غرفة نومنا، حتى إني في بعض الأوقات آمنت أن سرًّا ما يكمنُ فيها، إنها تناديني، تغريني، إغراءً مشحونًا بخوفٍ عظيم.

أفكر في كل هذا بينما أستلقي متأملة النافذة العتيدة. إنها الرابعة من بعد الظهر، ساعة ذروة ألمي. لمحتُ النافذة مجددًا بعد أن سرحت عيني في السقف قليلًا، لمحة واحدة وتمثّل المشهد كاملًا أمام ناظري،

وكم بدا الأمر بسيطًا! سأتسلّقها وأطلق ساقيّ للريح... كان عقلي قد فَسُد تمامًا وقواي في الحضيض. كان الأمر مرهونًا بالوقت فحسب. بين الدّقيقة وأختها كل شيء ممكن الحدوث.

كان للنافذة وجهٌ متوحشٌ يتقاطع مع وحدتي، فلا أعرف أهي مخيفةٌ على الدوام للمُتأملِ لها، أم أنها تبدو لي وحدي بهذه الفظاعة. في كل مرّة أنظر إليها أو ألمحها أدرك كم أنا مقيّدة وحرّة في الوقت ذاته.

أمي

ذكرياتي عن أمي قليلة، فقد توفيت عندما جاوزتُ الثالثة عشر من عمري. ومهما قلت إني أحملها معي، إنها تعيش فيّ، إلا إني لم أتمكن فعليًا من جعلها حاضرة. بل إني نسيت تفاصيل وجهها ونحوله، نسيت شكل يديها وجسدها ورنة صوتها بعد موتها بنحو عام أو يزيد قليلًا. نعم كنت أكذب ككل الكاذبين الذين يرقّعون تعاساتهم بكلمات أقرب للثرثرة.

أدركت الأمر متأخرًا. ولو أني كنت قد فعلتها قبلًا، لو أني اعترفت أنها ماتت مرة واحدة وإلى الأبد، لربما كنت أنقذت أختي الصغرى التي توفيت بعد والدتي بعام واحد. فقد صدّقت بدورها أني أستحضر أمي من خلال كلماتي وخاضتْ تجربتها هي أيضًا. ماتت أختي بقرارٍ شخصي، قالت لي في اليوم السابق إنها لا تود العيش بعد والدتنا، وكان هذا ما حصل. نامت في فراشها كما كل يوم، ولم تستيقظ. ظننتُ لوقتٍ طويل بعد موتها أنها كانت تمتلك قوة جبارة لإنجاح مسعاها بحِرَفيّة عالية، وظننت أنها حملت القوة كلها في كلماتها. فعندما قالت: «سأكف عن العيش بعيدًا عن أمي»، كانت كلماتها قوية لدرجة أنها صارت واقعًا.

أما أنا فقد بقيتُ أثرثرُ بعدها لوقتٍ طويل وادّعيت أني سأكف عن العيش بعدها، تمامًا كما كنت أثرثر حين ادّعيت أن أمي حاضرة معي رغم موتها بالنسبة إلى الآخرين. لكن في الحالة الثانية كما في الأولى

لم تكن كلماتي قوية كفاية، أو هكذا ظننت. لم تكن سوى كلمات. لا يمكنني القول إني كنت أكذب في أمنيتي، الأصح أن كلماتي لم تجد لها أرضًا حاضنة في الحالتين. نعم، حين لا تكون كلماتنا قوية كما ينبغي تصبح عبارة عن ثرثرة.

بعد تجاوزي لسن المراهقة بسلام كففتُ عن استدعائهما. فاعترفت لنفسي أني لا أحمل أمي معي، وأني لا أملك قوة كلمات أختي. كان هذا تمرينًا ناجحًا لنسيانهما لبعض الفترات.

الآن أنا أنضج بكثير، وأتقبل بلا توتر غيابهما، لكني، ولأعترفْ بذلك، ما زلت أحمل معي ذلك الشك بقوة كلماتي. ما زلت، إن صح القول، أرى العيب في كلماتي، في اختيارها، في قوتها، في عنفها، في جديتها، في فرادتها، في تأثيرها، في صدقها.

في غرفة المعيشة، في الجهة المقابلة للشرفة، وضعت لوحة صغيرة تضمهما معًا، أمي وأختي. إنها الصورة الوحيدة المتبقّية لديّ لهما معًا. أردت الاحتفاظ بهذا الدليل الصغير على وجودهما وعلى حياتهما التي شاركتاها معي. فكل شيء خارج إطار هذه اللوحة ينكر وبإصرار أنهما كانتا يومًا هنا، وعلى رأس ذلك كلماتي الثرثارة.

وأنا أفكر في أمي الآن أقف على قدمي، أعبر الغرف وأمتثل أمام اللوحة التي تضمها محاولةً إيجاد عزاء لديها. في الصورة ترتدي أمي ثوبًا أبيض مزمم الأكمام وتنظر مباشرةً للكاميرا بابتسامة واضحة الاحتشام، وفي حضنها تجلس أختي ذات العام والنصف بهيئة متململة في ثوبٍ أزرق يشبه ثوب الأميرات.

أتوقف غالبًا أمام صورتهما، وأخاطبهما، خاصة حين أشعر بالتعاسة أو الحزن، وأرى غالبًا أن وجه أمي يمدّني بالقوة الكافية. لكني في الفترة الأخيرة لا ألقى عزاءً من النظر إليها، بل تبدو أمي أكثر من أيّ وقتٍ مضى، ضعيفة وهشّة في الصورة، ربما لابتسامتها الخجولة علاقةٌ بذلك. حتى وجه أمي المجمد في الصورة لم يبقَ منه شيء، حتى ولا عزاء صغير يمكنني أن أناله في ضيقي.

تبدأ فكرتنا عن قوّة والدينا وقدرتهم بالانحسار ما إن نرى فيهم أشباهًا لنا. وأنا أعني ما أقول، فحين نبدو شبيهين بهم قد يدل هذا على سيطرتهم التامة علينا، أي يدل على قوّتهم وضعفنا. بينما حين يبدو لنا أنهم يشبهوننا فهذا يعني أننا كشفنا زيف قوتهم التي تبدأ منذئذٍ بالانحسار. عندها نحسّ بالشفقة تجاههم لدرجة قد تدفعنا أحيانًا إلى النفور منهم.

تُشبهني أمي في هذه اللقطة لدرجة كبيرة، ليس شبهًا بالشكل الخارجي، بل بالحشمة والخوف المتغلغلين داخلها. أو هذا ما يبدو لي.

الحب أو اللبن

أقترحُ على ديدار مشاهدة فيلم. لست من هواة الأفلام، ولكني في هذه الفترة أفعل كل الأشياء التي لم أكن أفعلها سابقًا، لديّ هوس عجيب بملء الدقائق والساعات، أكره أن أجلس، أكره أن أسترخي، أن أتأمل، أكره حتى انتظار ساعة النوم. يوافق ديدار على اقتراحي بعد تململ فهو لا يحب نوع الأفلام التي تتسم بكونها نسائية. ومع أني لا أحدد له أي نوع من الأفلام أرغب في مشاهدتها، كان الأمر حقًا سيان عندي، إلا أنه يفترض أني أتوق للنوع الذي يكره منها، فأرى ردة فعله اللاحقة مباشرةً لموافقته:

- حسناً، ولكن ارحميني من أفلام الحب...
- آه الحب؟ لا، اختر فيلمًا حربيًا إن شئت.

لا بد أنه لاحظني وقد تجمّعتُ على نفسي ببرودة، لأنه غيّر رأيه واختار فيلمًا رومنسيًا نوعًا ما.

تخلع البطلة سروالها الداخلي وهي جالسة في مطعم كبير مع العديد من الضيوف، ومن أسفل الطاولة تناوله لرجلها، سروالهًا الداخلي جميلٌ من الساتان، ورديُّ اللون يشبه اللحم الطازج، إنه قطعةٌ موسيقيةٌ فنيةٌ بحالها، وأفكر: «لمَ لا يلبسنَ في الأفلام سراويل داخليةً قطنيةً عادية؟ لمَ يجب أن يلبسن أفضل الأنواع كأنهن دمى؟» أحاول أن أتذكر ما أرتديه، لكن ذاكرتي لا تسعفني.

كان الفيلم مُكتمل السخافة. تم رسمُ البطلة فيه بالمظهر التقليدي المعتاد، جميلة جدًا وتجهل أنها كذلك، وغبية جدًا وتجهل بنفس الدرجة أنها كذلك... والبطل من ناحيته لم يتزحزح قيد شعرة عن النموذج التقليدي المثير للرجل، الرجل القادر على كل شيء والذي يعرف أنه قادر على كل شيء، والخبيث الذي يعرف أنه خبيث ...

أما القصة يا إلهي، فقد كانت ذات القصة البليدة... مُطاردة مُفتعلة جدًّا في البداية ثم التقاء ويعقبه على الفور سوء فهم وخيانة، وينتهي العشاق بالالتحام بهذا الوضوح.

الوضوح. نعم هذا ما كرهته أكثر من أي شيءٍ آخر... ففي الأفلام تكون الأشياء واضحةً على الدوام، أسباب اللقاء وأسباب الحب وأسباب الشِّقاق واضحة ويمكن فرزها بسهولة. أما في الحياة، التي يُفترض أنها المادة الملهِمة للفيلم، فلا شيء واضح، لا الحب ولا الخلاف ولا الفراق ولا اللقاء، ننهض من غموضٍ لنقع في آخر، وإن كنا محظوظين كفاية نسبح في الغموض كأسماكٍ شقيّةٍ دون أن نخرج منه يومًا أو نتساءل عن العالم خارج الماء، ماء الغموض.

لا أعرف إن كان الغموض سر الحياة وسعادتها أم شقاءها. فهذا الرجل الذي يجلس بقربي أستطيع أن أقول إني أكنُّ له أعمق حقدٍ في الكون وفي ذات الوقت أشعر تجاهه بحبٍ عظيم كأن لا أحد آخر غيره على وجه البسيطة. وهكذا يتأرجح الشعوران المتناقضان أمام عينيّ كبندول ساعة دون أن أتيقّن ولو لمرة واحدة من أصالة أحد الشعورين وزيف الآخر.

أضجرني الفيلم وحكاية حب البطلين فتشتّت ذهني وتمنيت لو أطفئ التلفاز، لكني تماسكت من أجل ديدار الذي بدا منسجمًا لأبعد حد. في هذه النوعية تحديدًا من الأفلام، أتحجر من البلادة، أصبح حجرًا. ثم يجرفني الحنين رغم ذلك إلى عيش مشهد من حياتي كفيلم، وتنبع العاطفة المتكدّسة داخلي.

لا أفقد الأمل كله، أنظر ناحية ديدار، لا بد إن التقت عينانا أن يرى شيئًا غير عاديٍّ فيهما. ها هو ينظر، لكنه بدلًا من محاولة تخطي عادية الحياة ولو لبرهة، ينغمس فيها أكثر. هذا الانغماس في الواقع وعاديته باهتٌ ومُذِلٌّ لأبعد حد. مشاعر الحسد التي تملكتني منذ أيام من نشاطه ونشاط الرجال أمثاله وانخراطهم في الحياة تحولت إلى مشاعر كره واستخفاف. لا بد أنه يمتلك من الأفق أضيقهُ ليكون قادرًا على تجنب الإحساس بالحياة خارج الهموم اليومية المرئية. لا بد أن انخراطه الذي سحرني على الدوام لم يكُ سوى ارتماءٍ غبيٍّ في العالم، انخراط لا إرادي، أعمى.

يقول كأن نظرتي أتاحت له الفرصة أخيرًا ليقول ما يعتمل في صدره:

- لِمَ تركتِ صحن اللبن على الطاولة؟ سيفسدُ حتى الصباح.
- لعنة الله على صحن اللبن والمنخرطين في الحياة على حدٍّ سواء.

قلتها بحنقٍ وهدوء.

محاولة أخلاقية

بخصوص تلك المرأة الخفية، أو المتلصّصة، أو القصديرية، لا تهم التسمية، فقد أفزعتني منذ أيام أيما فزع. بدا لي سابقًا أنها حيادية إلى حدٍّ ما، ليست صديقة بالطبع، إلا أنها بلا أذى حقيقي أيضًا. لكنها تغيرت وتمادت في حدودها، ولم أستطع أن أغفر لها إلى هذه اللحظة. أشعر بالحاجة إلى البكاء لأني أجبن من أن أسرد ولو على الورق ما حاولته معي. لكن يجب عليّ أن أتماسك، سأفعلها وأكتب ما أقدمتْ عليه، ربما إن كتبت تتوضح لي أنا نفسي بعض الأمور، أو تعينني الكتابة على سحب الفزع من الكلمات التي تفوهتْ بها آنذاك.

حضرتْ يومها في نحو الساعة الثالثة من بعد الظهر، كانت الطفلة نائمة وكنت أحاول تناول شيءٍ ما إلا أني لم أشْتهِ الكبدة. وكأني كنتُ أنفّذ أمرًا صادرًا من ديدار الغائب، حاولت أكل قطعة صغيرة من الكبدة لكنها ككل مرة بقيت عالقة في حلقي. شربت الكثير من الماء وبكيت لأني شعرت بضيقٍ غريب وتوجهت بعدها إلى غرفة نومنا. ما إن وقفت أمام سرير ماف حتى حضرت هي على الفور ووقفت خلفي. في مثل تلك الحالات أمتنع عن الالتفات، لا أحاول النظر ببساطة. بَدَت مراوغة، شعرت من تنفّسها أنها تود توريطي في شيءٍ ما. بدت كعقل، ككتلة عقل، أو هذا ما خُيّل لي، فقد قلت إني لا أراها لكني أشعر بها شعورًا قويًا. بدت كعقل آخر يفكر معي، يفكر داخل عقلي، وكانت رغم ذلك

حيادية بشكلٍ وقح. ظلت تراقبني وتُقدّم لي بعض الأفكار الجديدة التي لم تكُ بالتأكيد مواساة أو نصائح. هذا العقل الآخر كان عقلًا بحتًا، لا شيء إنساني فيه. حين فكرت أن لا شيء إنساني فيه جفلت، إذ ما الذي سأصنعه بالعقل إن لم يكن يفكر إنسانيًا؟ تبدى لي لوهلة أنها ليست إنسانًا كما ظننت سابقًا، أنها عقلٌ فحسب، عقلٌ مفرطٌ في عقلانيته، عقل مجنون. نعم، هذا أنسب تعبير يصفها، إنها عقلٌ مجنون، عقلٌ في أشد حالات تسطّحه.

ابتدأ الأمر بسؤالٍ خَطَر لي بينما كنت أتأمل ماف في سريرها:

- لمَ أحاول حماية نفسٍ واحدة بينما العالم في الخارج يحاول كل جهده تطوير نفسه لإيجاد وسائل أكثر فأكثر فاعلية لقتل أكبر عدد من الأنفس؟

قفز العقل وخُيّل لي أني سمعت وقع قدمه خلفي وقال دون أن يُبدي حماسة في نبرة صوته:

- سؤالك جوهري، وإن طرحته على نفسك فليس في الأمر أيُّ عجب، هذا هو السؤال الذي يجب أن يطرحهُ كل امْرئٍ على نفسه.

صُدمتُ حقيقةً لسماع ذلك، لأن الإجابة على مثل هذا التساؤل واضحة إلى حد أني لا أجرؤ حتى على التلفظ بها. أعدت صياغة عبارتي بطريقة أخرى لأرى مجددًا إن كانت المرأة تقصد بحق ما تفوّهت به:

- أقصد أن حياة الطفلة لم تبدأ فعليًا بعد، فهل يجب أن أقلق بشأن وجودها وأوظف كل قدراتي لحمايتها؟

- أتفهم تساؤلك وحقيقةً ستتفاجئين إن قلت لك أنه ليس هناك أية حتمية في حماية حياةٍ ما ولا حتى جدوى من ذلك... الأمر أخلاقيٌّ

فحسب.» قالت وبدت كأنها تنثر كلماتها كحبات خرز هنا وهناك، وقد كانت خلال حديثها تتسلى بلفّ بعض الخيوط على بكرة خشبية، تلف الخيوط ثم تكرّها من جديد. هذا ما شعرت به.

أضافت:

- أعني أنه ليس عليك حماية حياةٍ الطفلة أو أية حياة أخرى، لكننا نفعل ذلك لأننا متشرّبون بواجبٍ أخلاقيّ اتجاه أنفسنا والآخرين.

- لم أفهم مقصدك، ما شأنَ الواجبِ الأخلاقي؟ وما هو أصلًا؟

سألت وندمت من تهوري في طلب إيضاحاتٍ منها. خدعني هدوءها، ولو أني فكرت قليلًا لأدركتُ بلا عناء أنها ليست ممن يهبون الطمأنينة أو السلام.

قالت بحزم كأنها كانت تتوقع سؤالي:

- الواجب الأخلاقي هو حاجز، حاجزٌ متحرّكٌ فحسب، يمنعنا من أشياء بينما يُبيح لنا أخرى دون أن يكون ثمّة علة أو سببٌ جوهريٌ كامنٌ في الحالتين.

بدا أن كلماتها لا تنتمي إليها، تزعجني برودة هذا المرأة، برودة صارمة، لم ألقَ أحدًا باردًا وطاغيًا في قوله إلى هذا الحد. لكن على الرغم من برودتها فكرت أنها ربما لا تنوي نصب شراك لي، قد تكون هذه طريقتها الخاصة في معالجة المواضيع، ليس إلا، لذا سألتها:

- أليس سببًا جوهريًا بقاؤنا على قيد الحياة؟

- بلى، بالتأكيد، إنه سبب، ولكن هناك سببًا مضادًا في المقابل.

قالت هذا فيما ظلت يداها منشغلتين بلف الخيوط وكرّها.

- أليس هناك غريزة؟ غريزة البقاء؟

قالت دون تغيير نبرة صوتها، ودونما إلحاح أو أية إشارة تدل على التفكّر:

- لا شيء من هذه الأمور، أيًا كانت وجهة النظر التي تناقشين من خلالها الموضوع، سترين أنه لا يتجاوز كونه محاولة أخلاقية مصطنعة وباهتة.

صمتت، إذ لم أفهم على الفور ما تعنيه كلمة «محاولة أخلاقية» هنا، لكني ميّزت أنها شيء ما ضد الغريزة. ساد الصمت بيننا لعدة دقائق، بدا لي أنّ السيدة تحوّلتْ خلالها إلى قطعةٍ من خشب. ثم فجأة وبينما كنت أقترب من ماف النائمة، فهمت. شعرتُ بالصقيع يصعد من أسفل قدمي إلى رأسي. تحّرك نظري من تلقاء نفسه ناحية النافذة ولم أتمكن من انتزاع عينيّ عنها، إذ بدت النافذة وحشية أكثر من أي وقتٍ مضى.

نسيت أن أقول إنه يربطني بالنافذة كل حديث بيني وبين السيدة- العقل. فإن لم تتجه عيني في حضورها ناحية النافذة وإن لم أكن في غرفة نومي لحظة حديثنا، فإن النافذة تضيء في رأسي كثقب كبير.

سار الأمر بعدها بسرعة، لا أتذكر إلى الآن تفاصيل ما حدث، لكني أذكر أني ثبّتت قدمي في مكانهما فتركتني السيدة بعد وقت بلا إلحاح كبير، إذ لم تكن هي التي تُطوّر المناقشات، بل كانت تبعث فيها بعض اللهب، إن صح القول. وهذه المرة، أكثر من كل المرات السابقة، شعرت أن اللهب مؤذٍ إلى حدٍّ لا يمكنني احتماله. عشت رعب كلماتها لأيام متتالية بعد ذلك، إذ بدا لي أني أستطيع أن أقاوم وأتماسك مالم أجد مَنً يؤكد لي ما أفكر به. وما فعلتْهُ هذه المرأة كان بالضبط تأكيد أفكاري، أي دفعي نحو الهاوية.

المرأة-العقل

بعد تلك الحادثة، كان العقل يباغتني بكلمة، إذ لم تكن من عادته إجراء حوارات طويلة. ولكن كلماته كانت تتركني في صقيع، فهو لم يكن يلقي أية كلمة. إن سمحت لنفسي بفهم ما قاله حول «المحاولة الأخلاقية» في المرة الماضية فإني سأقول إن كلماته لم تكن أخلاقية. فذات مرة بعد أيام من تلك الحادثة وبينما قادتني قدماي رغمًا عني إلى النافذة قفز العقل من ورائي وقال كلمة واحدة: «جربي».

جعلتني هذه الكلمة التي قيلت بأسوأ وأبرد نبرة ممكنة على وجه الأرض ألتفت إلى الخلف وأحاول العثور على مصدر الصوت لكني لم أجد شيئًا. وكانت هذه المرة الوحيدة التي ألتفت فيها ناحية الصوت. كانت ماف تتحرك وتتأمل أصابعها على سريري الواسع، تنظر للسقف نظرةً لا تنضوي إلا على فضول غير مُتشكّل بعد. أعدت نظري إلى النافذة فعاد الصوت للقول: «جربي».

كانت برودته عنيفة إلى درجة أنها أبعدتني عن النافذة كمن قُذف إثر ضربةٍ قوية. تركت الطفلة تعبث وخرجت مسرعةً إلى غرفة المعيشة. جلست لدقائق ريثما أستعيد أنفاسي.

ما كان واضحًا في هذا العقل المتخفي أو هذه المرأة المفرّغة إلا من العقل، هو أنه كان متمهلًا وصابرًا في إرشاداته، فلم يكن يتدخّل أو يحرّف طريقي مالم أكن مُقدمةً أنا نفسي على فعلٍ ما، كانت مهمته تبتدئ في اللحظة التي أسير فيها بنفسي باتجاه الهاوية. مع ذلك كان خوفي وغضبي عظيمين لمجرد التفكير أن ثمة أحدًا ما يشجعني على السقوط في الهاوية التي أرفضها وأنجذب إليها في ذات الوقت.

عالم البيض المقلي

هذا المساء تأخر ديدار، ونظرًا لثقل يوم كامل من الوحدة تحوّلتُ في لحظات تأخره الأخيرة من مشاعر القلقِ عليه إلى غضبٍ منه. أروح وأجيء في الغرفة كأني أسير على دولاب. لا أتمكن من متابعة فكرة واحدة إلى النهاية. نظرت إلى الساعة، كانت بالكاد السادسة وخمسًا وثلاثين دقيقة. عاتبت نفسي بقسوة، إذ لم يكن تأخرُ ديدار قد تجاوز بعدُ الحد المعقول للخوف عليه أو الغضب منه. تأففت وحملت الهاتف لأتصل بصديقتي التي أرغمها انقطاع ساقها على البقاء طوال الوقت في البيت. رن الهاتف ثلاث رنات فردت عليّ بينما بدت منشغلة بشيء ما بين يديها، بدت غارقة في فعلٍ يوميّ كتحضير طعام أو غسل مواعين. تفهم النساء من وقع أنفاس بعضهنّ إنْ كنّ منشغلات بعمل شيء ما وأحيانًا تحزرن نوعية العمل نفسه. حين سمعتْ صديقتي صوتي غيّرت من نبرتها وأظهرت سعادتها باتصالي. لهفتها أخرستني، إذ شعرتُ أني أخطأت بالاتصال، فما عساي أقول لشخص يحمل كمية لهفة محرجة في صوته بينما لا أجد في نفسي القوّة الكافية للاهتمام بأحد. كان اتصالًا متهورًا ومن دون مبرر. وأثقل عليّ أنها أخبرتني باستشعارها منذ الصباح تلقّيها اتصالًا مني. هنالك من يُفكر بي إذن؟ وهذا التفكير بي لا يعزيني بالتأكيد، بل يُثقل على كاهلي أكثر، يُشعرني بذنبٍ غريب.

قالت بتأكيدٍ ولهفة:

- كيف الحال مع الصغيرة؟ سترين كم يهبون من حب، ليس ثمة رجلٌ على الأرض يهب امرأة حبًا بقدر ما يهبه طفلها.

أردت أن أغلق الهاتف، لكن كانت ستبدو حركة غير معقولة مني، فنحن لم نتكلم بعد. سألتها إن كانت منشغلة بعمل شيء، فأجابت:

- لا، كنت أحضّر البيض المقلي لابني. يريدها مشوية من الجهتين كما عوّدته، ويرفض أن يصنع له أبوه مثلها، إنه لا يثق إلا بيدي، وأنا حركتي ثقيلة، تعرفين، منذ أن أصابتني القذيفة لا أسير إلا بعكازين وبالكثير من المساعدة حتى أتمكن من النهوض.

أغلقتُ الهاتف في أول فرصةٍ سانحة، واستسلمت لبكاءٍ طويل، وفي كل زاوية من زوايا الغرفة رأيت صحنًا من البيض المقلي والعبارة المشوّهة تتردد بلا انقطاع في أذني: «أحضّر لابني بيضًا مقليًا بينما أسير على عكّازين». لا أعرف ما الذي كان ثقيلًا بالضبط في تلك المقارنة لكني شعرت أن حجارة كبيرة أُسقِطت بلا رحمة في أحشائي.

لذّة متبلّدة

بقيت الحجارة تتحرك في أحشائي لأيام. كنت أشعر بها في كل حركة وكل سكون. واليوم فكرت جديًا بسهولة سقوطي وأنا أحمل كل هذه الحجارة في داخلي.

فجأة خطر في بالي أن أجرّب وقد صار الوضع داخل رأسي ضبابًا كثيفًا. فتحت النافذة ووضعت يديّ على حوافها الخشبية، وفي لحظة واحدة امّحتْ كل عاطفة تبقيني على الجانب الآخر من الشارع، كان الأمر أكثر سهولة مما تصورت. فجأة باغتتني السيدة من الخلف، كانت واقفة وقفة من يودّ الانقضاض على شيء ثم شرعت تؤرجح جسدها قليلًا إلى الأمام وإلى الخلف. ومع أني لم ألتفت إليها إلا أني أحسست أن ثمة خصلة ناعمة، لامعة وفضّية اللون تترنح فوق الجهة اليسرى من جبينها كلما حرّكت جسدها. كانت خصلة زائدة.

لانت أفكاري وأطرافي وعظامي بتأثير حضورها مثل الزبدة، تقدّمتْ مني خطوة قائلة: «سترين ليس صعبًا أبدًا».

تلقيت كلماتها كصفعة من يدٍ باردة، وللمفارقة فإن برودتها بالذات -كما في المرة السابقة- هي مَا أوقفني عن الفعل. تراجعت، أغلقت النافذة وسرت بهدوءٍ كامل إلى الحمام وأخذت دشًا دافئًا لمدة نصف ساعة. كنت أغلق صنبور الماء بين الحين والآخر لأتأكد ما إن كانت ماف تبكي أم لا، ثم كنت أعاود فعل التطهّر من الخوف تحت الماء.

حين خرجت من الماء نظرت إلى جسدي في المرآة، كانت ترهلات بطني قد خَفّت، لكن خصري امّحى كاملًا. مررت بيدي على بطني ونزلت إلى الأسفل، كانت هناك في الأسفل نقطة عمياء نسيتها تمامًا، نسيتها بقرار، نسيتها منذ وقتٍ بعيدٍ حقيقةً. ولم أشأ التفكير في الأمر مليًا، فكل لذة صارت متبلّدة.

أستطيع أن أتذكر بدقة كيف جاء قراري ذاك. كنت أرى بوضوح أني ما عدتُ أستمتع بشيء، لكن لم يكن هذا بالسبب المباشر. السبب المباشر كان قبلة باردة ذات يوم، قبلة غارقة في البلاهة، طبعها ديدار على فمي كختم حكومي. كانت قبلة سريعة من تلك التي نهبها بلا أية رغبة حقيقيةً فيها. ولكني انتبهت إلى أنها كانت سريعة أكثر من اللازم، سريعة لدرجة مُهينة. أشعل هذا في داخلي غضبًا كبيرًا، إذ رأيت أن عاطفتي تجمّدت أكثر حين اقتحمت السرعة العاطفة. بالطبع لا يمكنني الجزم أن ديدار طبع القبلة ببرودة هو الآخر كما تلقيتها أنا، فلا أحد يستطيع ادّعاء اقتناص شعور الآخر من داخله، ولا سبيل لسؤاله عن صدق عاطفته على أية حال. لكني رغم جهلي بشعوره، قررت أن أتوقف ها هنا.

كان الانشغال بالاستحمام ومن ثم التفكر في اللذة المفقودة فرصة جيدة للابتعاد عن شبح محاولة القفز. قضيت بعدها النهار كاملًا، وحتى الليل، في صفاء من الأفكار السوداء. كنت كمن عاد من الموت بعد أن غيّبه لبعض الوقت. كنتُ راضية عن الصفعة القوية التي تلقيتها من السيدة وممتنّة إلى حدٍ ما لأنها سهّلت لي هذه المقاومة التالية.

حرب داخلية وحرب خارجية

لا بد أن ديدار كان متأكدًا من سوء حالتي، لأنه قرر ذاك المساء رفع التلفاز ووضعه في السقيفة العالية في مدخل الشقة. عندما سألته عن السبب قال: «أفعل هذا من أجلك، أرى أنك تتأثرين كثيرًا بالحرب التي تعرضها نشرات الأخبار على مدار الساعة. يجب أن تريحي عقلك ما دُمتِ لا تستطيعين فعل شيء آخر».

حقيقةً، ليست الحرب هي التي تُشغل بالي هذه الأيام، بل يمكنني القول بوقاحةٍ إني لا أبالي. أما نشرات الأخبار فلم أحضرها منذ وقتٍ طويل، لا لشيء إلا لأن مذيعي الأخبار يبدون لي مستفزين: النبرة، والجلسة، وتصنّع الجدية المبالغ بها، كل هذه المظاهر تُشعرني بسخفٍ لا يمكنني احتماله. رغم إصراري وإنكار تأثري بالحرب إلا أن ديدار قرر أني غير واعية فحسب، وأني لا بُدّ قلبتُ حرب الخارج إلى الداخل.

رغم أني أحجم عن إقناعه، لكني أدير النقاش لمرات عديدة في رأسي وأخرج كل مرة بنتيجة مفادها ألا علاقة لما يحصل في الخارج بالتوحّش داخلي. فعلى سبيل المثال، في ذلك اليوم عندما كنتُ أجرب القفز من النافذة فكّرتُ بطفلٍ عالقٍ تحت الأنقاض، بأم فقدت صغارها واحدًا تلو الآخر، بأبٍ عاجزٍ يبكي أمام باب داره من أجل أطفاله الذين قُتلوا نيامًا، لكن لم تبدُ لي كل هذه الصور مؤثرة كفايةً. كانت ثمة مسافة شاسعة بين صورتهم وبين شعوري نحوهم. ربما قامت ذاكرتي

بما يجب عليها القيام به لإقناعي بالعدول عن القفز حين عرضت عليّ صور مآسيهم (أو هكذا أفترض، إذ لا علم لي تمامًا بمهام الذاكرة) إلا أنها لم تفلح، فكل صورهم والدماء الوفيرة لم تستطع أن تُريني سُخف ما أنا مقدمةٌ عليه. مسحتُ صورهم من أمام ناظري بضربة يدٍ خفيفة، كما نفعل حين نود طرد ذبابة مزعجة، وأكملتُ محاولتي في القفز.

لم ينتبه ديدار حين قرّر رفع التلفاز إلى حاجتي للضوضاء من حولي. وهكذا خسرت ما كان يُعينني، بالصوت الذي كنت أختاره عاليًا، على الشعور بالحياة في بيتي البارد وعلى تلافي سماع الأصوات التي لم أكُ أرغب في سماعها.

قد يكون خيرًا لي لو أن ديدار يتناسى أمري ولا يهتم بحالتي. إجراءاته للاهتمام بي لا تصب في صالحي في أغلب الأحيان فبدل أن يخفف الأمر عني يزيده سوءًا. كبدة الدجاج مثالٌ عن هذا الاهتمام الأعرج بي.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

عفاريت فاحكة

قررت أن أصارح ديدار بالأمر، أمر وضع قضبانٍ للنوافذ، لم يعد خوفي منها شيئًا يمكن تجاوزه. قررت إخباره وكنتُ حاسمة في قراري حتى قبل عودته بربع ساعة. لكن ما إن بدأت الدقيقة الرابعة عشر بالتحرك قبل دخوله المنزل حتى بدأ اليأس يتسلل إلى جوفي. ماذا سيظن بي؟ كم سأخيّب أمله لو عرف أني بهذا القدر من الضعف والهشاشة. لا، لا يمكنني قول ذلك لمخلوق، ولديدار قبل الجميع.

حين تجاوز باب البيت ارتكبت أول خطأ، إذ تجمّد وجهي وتجعّد من فوره وصارت نبرة صوتي كصوت زمورٍ معطّل وقلت:

- هذه النوافذ. وغاب صوتي.
- ما بالها هذه النوافذ؟ قالها بنوعٍ من الغضب.

عرفت أن عليّ إنهاء الحديث هنا.

في الليل خضتُ صراعًا بين عقلين، أحدهما يجبرني على قول ما أردت قوله لديدار مهما كلف الأمر، مستندًا إلى الخوف والهلع الاستباقيين ليوم الغد؛ أما الآخر فكان عقل امرأة متوازنة، طبيعية وغير متطلّبة، تتفهم أن الحياة تفرض المشاركة ومراعاة الآخر وعدم الإلحاح قدر الإمكان. قبل أن يحسم العقلان جدالهما، قلت بأكثر قدرٍ ممكنٍ من المباشرة:

- لمَ لا نضع قضبانًا للنوافذ؟

- ما الداعي؟

تفاجأ ديدار من سؤالي وقد بدا غاضبًا، هل كان يتنبأ بما سأقوله؟

- ستكون أكثر أمانًا. أنت تعرف.

بقي ديدار صامتًا لبعض الوقت، يبدو كأنه يفكر بحدود هذا الأمان الذي حدثته عنه. ومعه كل الحق، فهل يغلق الناس عادة نوافذهم بالقضبان ليجعلوها آمنة؟ يبدو أنه عجز عن تفهم فكرتي ودوافعي لطلب ذلك لأنه قفز إلى النتائج على الفور:

- الآن؟ وقد طال الغلاء كل شيء؟

«ربما سيكلفنا أكثر بكثير من المال لو بقينا على هذه الحال». قلت لنفسي.

استأنف قوله:

- لا يبدو لي أنك تقدّرين حجم التعب الذي ألقاه. درست وعملت بكد حتى صنعت لنفسي اسمًا، واضطررت بعد كل هذا التعب إلى العمل في معمل بائس لصناعة الأحذية لا يدر سوى نصف ما نحتاج، وتطلبين مني قضبانًا ستكلفني أجر ثلاثة أشهر كاملة؟

كان محقًّا حرفيًا، وعرفت أن كل تعقيب على كلامه سيكون ثرثرة.

أوليته ظهري وسبحتُ حتى الصباح في سريرٍ تهزه من كل جهة عفاريت ضاحكة.

دم متخثر

أتت هذا الصباح، لا أعرف كيف عرفتُ بمجيئها لكني عرفت، ظهرت خلفي ولم أجرؤ على الالتفات. كان الجو على غير عادته غائمًا ورائحة التبغ الذي دخّنه ديدار في المطبخ قبل خروجه قد انسلّت إلى غرفة نومي. كنتُ مصممة على تفادي أي كلام معها فقد تبين لي بما لا يقبل الشك أنها تود الإيقاع بي. وأقصد بالإيقاع اقتيادي وفق إرادتها بطريقة خبيثة ناعمة. حقيقةً يمكنني تقبل أسوأ الأمور، لكن يجب أن أكون متيقظة ومنتبهة بعينين مفتوحتين. يحطّمني شعور أن أكون مُقادة.

لم أبتكر بعد طريقة للتخلص منها، لكني كنت واعية لتجنب أي حوار معها ولذا استعنت بحيوية زائفة اصطنعتها على وجهي وضحكت، ووسعت ضحكتي حتى إني خفتُ من صوتي ذاته. توجهت إلى خزانة ملابسي وأخرجت بعض القطع، أجملها، وهممت باستبدال ثيابي. حين أصبحتُ عارية زاد خوفي من تمكّنها من الالتصاق بجلدي بطريقةٍ أو بأخرى، فأسرعت الى ارتداء ما وقعت عليه عيناي وهربت خارجة من غرفة النوم. توجهت إلى المطبخ وعزمت على صنع فنجان قهوة، كنت آمل بهذا أن تكف السيدة عن ملاحقتي. انتبهت أني أرتدي قميص ديدار. بدا الصمت في أرجاء البيت ثقيلًا، إذ لم يكن ثمة أي صوت آخر غير ركوة القهوة وصوت صنبور الماء الذي تركته يتدفق بلا داع. سابقًا كنت أترك صوت التلفاز يطغى على كل صوتٍ آخر،

كانت هذه عادتي لقتل الصمت والخوف كل يوم. أنهيت إعداد القهوة ولمّا سكبتها وجدت ما يشبه الدم المتخثر يسقط في الفنجان، فدلقت القهوة في حوض المواعين وهرعت إلى ماف، حملتها بين يديّ وبدأتُ بالصراخ لأني شعرت بالمرأة تتبعني إلى غرفة النوم بعد أن كانت خلفي في المطبخ. وهي إن سارت خلفي من مكان لآخر فهذا دليل على رغبتها في قول شيء. بكت الطفلة من شدة صراخي، لكني تابعت إلى أن شعرت باختفائها. أرضعتُ ماف الجائعة من الحليب الممزوج بالفزع، وضعتها في سريرها وبكيت مطولًا. كانت قواي خائرة.

لحظات قصيرة ودخلتُ في نومٍ عميق.

2=1+1

اليوم أعدت على ديدار بتهوّر أهمية وضع قضبانٍ للنوافذ.

نظر بنفاذ صبر وبفضول رغم ذلك.

- أنا خائفة.

- ممَّ؟

- أن أقع بينما أستند إلى النافذة، أو مثلًا أن تقع فتاتنا من النافذة إن كبرت.

- أهذا كلام عاقل؟

لا أجيب، فهذا هو السؤال الوحيد الذي لا يمكنني نفيه أو إثباته. يكمل بعد وقت قصير:

- ابتعدي ببساطة عن النافذة، اقفليها ولن تقعي.

- هناك شيء أنت لا تفهمه.

يتأفف ويقول مؤنبًا:

- أنت تسبحين في النعيم وتشتكين. بيتٌ هادئ في مكان آمن، بعيدة عن الحرب والنزوح والقتال. أنسيت أيام الحصار؟ انظري مرةً واحدةً من الشرفة وستجدين بؤس الآخرين. لديك ألف سببٍ وسبب لتشعري بالنعيم. أحاولتِ؟ الناس تفقد أولادها وأموالها وأحباءها في هذه الحرب وأنت تكلميني عن النافذة اللعينة؟

من جديد لم يعد عندي ما أضيفه. كلماته محسوبة جيدًا بمنطق 1+1=2. لكن في عالمي لا حسابات منطقية رياضية.

أعترف أني لا أستحق الآن أن أؤخذ بجدية، ما أتفوه به كلام مجنون. لكن الأمر لا يتوقف على جنوني هذا، فعلى الدوام كان ما أقوله غير ذي أهمية، غير مُلح، يمكن تأجيله، يمكن التغاضي عنه، يمكن ببساطة نفيه، بل يتوجب في أحيانٍ كثيرة نسفه. وبشكل دراماتيكي، كنت أرى ما أقوله مهمًا، وملحًّا، ولا يمكن التغاضي عنه، بل وجيدًا. كيف صار ترتيب الأشياء التي أودها بهذه الحِدّية والتناقض؟ لا أعلم.

غضب

أقف أمام المرآة وأمعن النظر في وجهي الشاحب. عيناي غائرتان، تبدوان كحصاتين صغيرتين محشورتين في حائط إسمنتي. أنا لا أحمل وجهًا حزينًا أبدًا. لست حزينة ولا متكدرة المزاج. وجهي هادئ ولكنه غاضبٌ بعض الشيء. ليس وجهي بالتحديد هو الغاضب إنما هناك غضبٌ في مكان ما فيّ يمد أغصانًا وقحةً للأعلى، حتى تصل إلى وجهي. هذا الغضب غير المفهوم هو الجذر الفرعي لغضبٍ آخر. إذا سألتني ما بالك أستطيع أن أحدّثك بثقة عن كل ما أشعر به لكنّي سأعجز بالتأكيد عن تحديد ما بي.

وإن اتفقنا على أن ما بي هو ألم، فيجب القول إنه ألمٌ كالنقش: واضح كنقشٍ أو كلوحةٍ وغامضٌ كمعانيها. واضح لأني أعرفه أكثر من أيّ شيءٍ آخر، وغامضٌ لأني لا أستطيع مهما فعلت أن أصف ماهيته.

داخل الداخل/خارج الخارج

أضحك من نفسي بينما أحمل أوراقي إلى غرفة المعيشة. يبدو أني أكتب بجدية أكثر من اللازم. تساعدني هذه الكتابة كثيرًا، لا على العودة كما كنت سابقًا بالتأكيد، بل على إطالة أمد النهاية، على إرجاء ما يفكر فيه عقلي والنظر إليه عن قرب.

وعليّ أن أعترف لنفسي ما دمتُ أكتب هذه الأوراق لحاجةٍ شخصية بحتة أني في حالات توتري الشديد ألجأ إلى تلطيف الأمور، أنكر حجم مخاوفي أو أنكر ثقل حضور السيدة. في النهاية مَن يدري قد يكون هذا مسلكًا جيدًا، لكن ما دمت أودّ أن أقول ما أشعر به بالضبط، دون زيادة أو نقصان، فيتوجب عليّ أن أقول ما يعتمل حقيقة داخلي. وفي داخلي، في هذه اللحظات، ضجرٌ هائل. يسبحُ في ضجري خوفٌ قادمٌ من بعيد، خوفٌ يكبر يومًا بعد يوم كبالونٍ قابلٍ للانفجار. لخوفي وجهةٍ واحدة. وأنا من تقف على رأس هذه الوجهة. بالكتابة أحاول التحايل على الخوف... بكشفه أو بنفيه.

أحرص كلّ الحرص على ألا يرى ديدار ما أكتب. لا يمكنني تخيّل ردّة فعله حين يراني أكتب عن أشياء مجنونةٍ كهذه. هذه أشياء لا يقبلها عاقل: أن أتحدث عن طرائق فعالة لإنهاء حياتي، عن امرأة بثوب أسود تقطن معنا في البيت وتحثني على القفز من النافذة، عن جسدٍ لا

يطاوعني في جنوني. إنها أشياء مجنونةٌ بحق، وأنا -وإن كنت أعانيها بنفسي- واعيةٌ إلى بُعدها عن سلامة العقل.

يزعجني أني أفكر عن نفسي وعن الآخرين، وأدهش أحيانًا، فإن كان بإمكاني التفكير بحالتي وبأحوال الآخرين ورؤيتهم لي فلمَ لا أتمكن من التعافي إذن؟ إن كنتُ فطنةً وواعيةً لوجود عالمين أحدهما عالمي الضيق المشوّش والآخر العالم المنفتح للأسوياء، فلمَ لا أتمكّن من الانتقال ببساطة من أحدهما إلى الآخر؟ ألا تعين المعرفة في حلّ هذا الأمر؟ ما الذي يمنعني بالضبط من الانزلاق إلى العالم السّويّ؟ أجد في الأمر فِعلًا أموميًا بحتًا، أقصد تفهمي للآخرين وعوالمهم مع بقائي رغم ذلك في حدودي الضيّقة.

بينما أكتب هذا أسمع أصوات رجالٍ يتصايحون أسفل البناء، فأتوقف عن الكتابة وأخرج إلى الشرفة. إنهم العمال المنهمكون في بناء الشقق السكنية البيضاء قبالتنا. كانوا بعيدين إلى حدٍّ ما، لكن أصواتهم هذه الظهيرة الهادئة انتشرت واسعة ونقية كصوت جريان نهرٍ بين جبلين. أنظر إليهم بانتباه، تقف شاحنة كبيرة هناك وخلفها عدد من الرجال، أحدهم يأمر السائق بصوتٍ جهوري قوي أقرب للصياح بما يجب فعله ليتموضع في المكان المناسب ويفرّغ حمولته. إنه عالم رجالٍ حقيقي، عالم الخارج، عالم شفاف، لا يكلّف نفسه أكثر مما يحتمل.

أتأمل الرجال في نشاطهم، إنهم منغمسون في الحياة، متفاعلون مع آلتها. ما أجمل أن نتمايل مع إيقاع الحياة، فلا نسألها أكثر ممّا تعطي، لا نطرح على كيفيتها أسئلة ولا نلوي عنقها بخيالاتنا. من يدري لمَ هم بهذا الشكل، لمَ يتفاعلون مع الحياة بهذه القوة؟ ولمَ نبدو نحن النساء على العكس منهم مرتدّات عن هذا العالم الحقيقي؟

أتأمل الخارج كما نتأمل لوحة، أغوص في لذةٍ غير واضحة، وأنسى للحظات أنني أنتمي للداخل. أعود لغرفة المعيشة بعد تأملٍ طويل، أجلس على الكرسي، أمد ساقيّ كمُتعبٍ من المسير، أحاول الاحتفاظ قدر الإمكان بتلك السعادة الرهيفة. أغمض عيني. أنا بعيدة، بعيدة أكثر مما يمكنني احتماله.

أحببت على الدوام الاقتران برجلٍ يعمل عملًا يدويًا، بيديه، بعضلاته، رجلًا لا يفكر أكثر ممّا يرى ولا يتكلم عن أي شيء خارج حدوده. بدا لي هذا النموذج الأقربُ إلى الطبيعة ليس من الناحية الجسدية فحسب بل النفسية أيضًا. إذ أن هذا القرب من الطبيعي يتضمن -كما أفترض- مشاعر خام، عارية، طبيعية، غير متصنعة، غير مبسترة، مشاعر لا تتحوّر أو تتحجّب تلبيةً لمقتضيات التحضّر ولا تسعى لضبطٍ معياريٍ أو مرهونٍ لأدوار اجتماعية زائفة، بالمختصر مشاعر حقيقية.

لا، لا يمكنني أن أخطئ في هذه، ثمة عالمان، عالم الآخرين الكبير المتوازن، وعالمي الصغير الخائف والمخيف المحشور عنوةً داخل عالمهم الكبير. ومع أني أقطن عالمي إلا أني أتحرّكُ بخفّة ظاهرية بين الاثنين، أتمكن من التفكير كما يفكرون، أراعي عقل العالم وأعيه ولكني لا أستطيع العيش فيه. ثمة أبواب موصدة عليّ، لنقل أبواب شفافة لعالمٍ شفاف، تُمكّنني من الرؤية لكنها تمنعني من الخروج.

نبيّة الأشياء

عدت بعد أيام للتفكير بعالم الخارج والحياة في وجهها الأمثل وتذكرت أني أخبّئ في حافظة نقودي ورقة مطويّة منذ سنين. ربما استدعى تفكري في عالم الخارج ذكرى شبيهة لحدثٍ شبيه ما دفعني للبحث عن الورقة. لم أحمل معي الكثير من أشيائي حين استقررت هنا. لم أخطط لهجر بيتي، وجدت نفسي على الطريق هاربة بعد خرابٍ نال البشر والحجر، خرجت وبيدي حقيبةٌ واحدةٌ مُعدّةٌ منذ سنواتٍ ليوم هروبٍ مماثل. وحلّ ذلك اليوم ووجدتني أحمل الحقيبة بطريقةٍ آلية، ألقي بها في السيارة نحو وجهةٍ جديدة. كانت حافظة النقود ترتاح منذ وقتٍ طويلٍ في خزانة ثيابي، شعرت بالحنين لتلك الأيام التي كانت لي فيها صلة مع الخارج. فتحتُ الورقة وكنت قد نسيت تمامًا ما دونته فيها. كان نصًا عنونته بـ «نبيّة الأشياء». بدا خطي على الورقة مهتزًا ونافرًا كخطوات نملةٍ عرجاء، لا بد أني كنت أكتب بنوعٍ جديدٍ من الأقلام، قلمًا لم أعتد الكتابة به، لأني عادةً أكتبُ بخطٍّ أعرضَ وأكثر ثباتًا. قرأت ما دوّنته على الورقة وكان ذلك سببًا في تعاستي ليومين متتاليين. كان النص حياديًا ربما، لكنه حرك فيّ إحساسًا مؤكدًا بقذفي خارج العالم.

«لوقتٍ طويلٍ جدًا، ظلّت تنظر إلى الأعلى. لم تتصلب رقبتها، فكل شيء يغدو بحكم العادة يسيرًا... كان الآخرون مثلها تمامًا ذوي أعناقٍ متصلّبة ورؤوسٍ متوجهةٍ نحو الأعلى، ذلك أنهم مثلها تمامًا،

تعلموا انتظار مطر الحقيقة من الأعلى، من السماء... كان بالإمكان رفع الرأس دون النظر تحديدًا للسماء، النظر في حدود النظر كان إحدى هذه السلوكيات.

ذات يوم تعثّرتْ بحجرٍ على حافة الطريق، فسقطت أرضًا كسقوط جبل، ارتطم رأسها بحجرٍ آخر، وفيما كانت تحدّقُ ووجهها ممرغٌ في التراب وملامسٌ للأرض كما لم يكُ يومًا، اكتشفتْ أن للأشياء أوجهًا أكثر أصالة وأكثر تواضعًا. إنها أشياء ببساطة، ولا تكتسي ثوب الحقائق الذي اعتادت عليه. بل أكثر من ذلك اكتشفتْ أن الأشياء أجمل مما تبدو وهي أقرب للعين، أنها هي العالم ولا شيء آخر غيرها.

ظلّت مسدوحة بهذه الطريقة لشهورٍ طويلة، تنظر للحجر، والخنفساء، وقطرة المطر وكتل التراب والزهر والنمل على مسافة نصف إصبع. بعد تأملٍ طويل في أشياء العالم، سحبتْ وجهها من الأرض والتراب وجلستْ جلسة الحكماء، حكماء الأرض على وجه التحديد... واستقبلت لآخر العمر زوّارًا يطلبون التشافي بالنظر للأشياء عن قرب».

إلهٌ مذعور

إنه خائف، أستطيع أن أكون متيقّنة من ذلك، خائفٌ مثلي، لكنه أكثر هشاشة من أن يُظهر ذلك.

تأملته هذا المساء بينما كان يقرأ كتابًا في السرير، لم نتحدث تقريبًا، بتنا قليلي الكلام أكثر فأكثر ذلك أن كلماتنا لم تكن تدلّ على ما نود قوله، بل كانت تتدحرج بيننا كقذائفٍ جاهزة للارتطام، ارتطام الأشياء القوية بالهشة، أو الهشة بالأكثر هشاشة. لكن مَن كان هشًّا بالضبط؟ هو، أم أنا، أم كلماتنا؟

من زاوية عيني اليسرى دققت في غلاف الكتاب، لم أستطع قراءة عنوانه. إنه كتاب لم ألمحه سابقًا في البيت، أعرف هذا من اللون الأزرق الداكن لحواف الكتاب. ربما تكون أحد كتب القانون. هذا شيء لا يفعله المرء فيما لو كان سويًا. آه، كتاب قانون على سرير النوم!

عادت إليّ من جديد فكرتي عن العالم المتماسك والهش وفكرت بأنه ليس سهلًا على أحدٍ أن يعترف بطيب خاطر بهشاشته، حتى أنا. خاصة إن بدت هشاشتنا تهديدًا لأمننا. يمكننا بالتأكيد تقبّل الهَشّين أو الضعفاء أو الخاسرين في الروايات والأفلام والأغنيات، لكن ليس في الحياة. بل إن كل ما يفعله المرء خلال حياته من محاولات وإنجازات وانتصارات وكل ما يحرّكه عادة يسيّره دافعٌ واحد: إنكار الهشاشة.

وبطبيعة الحال لا يمكن للمرء أبدًا أن يتوصّل إلى الصلابة والتماسك اللذين يطمح إليهما لأن هذه تعارض مبدأ الحياة أولًا ولأن لا أحد يقرر أو يعرف ما شكل الصلابة المناسبة والملائمة والدائمة له. أما الهشاشة البدائية، تلك التي تكوّننا والتي نسعى إلى الهرب منها على الدوام فهي هنا، تتلقّفنا -متى استسلمنا- بيديها الكبيرتين كجدّة تجاوزت المئة عام وتفهّمتْ كل ألوان الضعف البشري.

رغم هذا ينجح المتماسكون أمثال ديدار في أن يتوافقوا مع العالم فيما أفشل أنا فشلًا ذريعًا رغم يقيني بدوام الهشاشة واستحالة التماسك. أفشلُ إلى الدرجة التي يصبح فيها حتى التعبير عن هشاشتي ذنبًا عظيمًا. قد أكون هشة، نعم. لكني لا أتناول عالمي بهشاشة، لا أهرب من فظاعته، بل أواجهه وأفكر فيه.

طوى ديدار الكتاب وأوقعه على الأرض إلى جانب فراشه، كان في طور الاستسلام اللذيذ للنوم. لم نتحدث تقريبًا، لكني كنت حاضرةً معه، كنت أراقبه بانتباهٍ كأني أراقبه من ثقب باب.

لم يكُ خائفًا، بل مذعورًا... شبيهًا بإله مذعور يصرّ رغم كل شيء على الاحتفاظ بكرسيّ عرشه.

الجارة

كنا نقطن حتى الحادية عشرة من عمري في حي شعبي، لكن ما حدث بعدها مع جارتنا في المنزل المجاور دفع أبي إلى البحث عن منزل في حيّ آخر بعيد. كانت المرأة هذه قد أُصيبت قبل ذلك بوقت بمسٍّ من الجنون، أو هذا ما ادّعوه حينها، وكانت من علامات جنونها أن تستيقظ الساعة الثالثة بعد منتصف الليل فتوقظ أطفالها بعصبيةٍ وتبدأ برشّ الماء في البيت منذرة ببدء عمليات التنظيف والمسح قائلةً بصوت متحمّس إن ضيوفًا في طريقهم إليهم وإن عليهم أن يستعدوا للضيافة جميعًا. وكانت تبقى على نشاطها هذا لوقتٍ طويل قبل أن تدرك غرابته وتنتكس وتبدأ بعصبيةٍ بنفي ما أقدمت عليه مُحاوِلةً إقناع البقية من العائلة أنهم هم المخطئون. وحين لا تلفح، أو تتعرض للسخرية منهم تحبس نفسها لساعات في الحمام، لا يدري أحد ما تفعله. ومن مظاهر جنونها أيضًا أنها كانت تقدم الماء في كؤوس لزائريها على أنه الشاي، وتسألهم إن كان سكره زائدًا أو إن كان ثقيل المذاق أو خفيفه كما يحبون، وتضحك بشدة حين يبدي الضيوف رضاهم فتقول: «لقد أفرغت كل علبة السكر فيه، لِمَ تكذبون؟» أو: «الشاي قاتمٌ جدًّا، ألا ترون؟ أستطيع تصديق أنكم لا تميزون اللون القاتم للشاي ولكن ألا تعرفون مذاقه أيضًا؟»

ويصحب ذلك قهقهة عصبية منها لا تتوقف إلا بعد أن ينفضّ الجميعُ من حولها.

لم يعرف أحدٌ سبب جنونها الفجائي ذاك وقد أشفق الجميع عليها لأنها كانت امرأة راضية وسويّة في السابق، لكن الشفقة بدأت بالتضاؤل على أثر الرعب الذي بعثته في نفوس الجيران. ففي مرات كثيرة، وهذا هو السبب الذي دفعنا إلى هجر بيتنا، كانت تقودُ في غفلةٍ عن الجميع أطفال الجوار إلى بيتها على أنهم أولادها، فكانت تغسلهم أو تطعمهم وتناولهم أدوية الإسهال أو الحرارة أو التهاب العين والجيوب وغيرها لأنها تعتقد أنهم مرضى أو جوعى أو متسخون. في هذه الحالات كان صوت الأطفال الفزِع هو ما يقود الجيران إلى بيتها فيقتحمونه ويخلّصون أطفالهم الذين يكونون قد تحولوا إلى حبات ذرة لشدة اصفرارهم.

بعد تكرار تلك الحالات والمشكلات التي أزعجت الجوار عرضها زوجها على أحد المشايخ، الذي فسّر الأمر على أنه من فعل شيطانٍ يعتاش على جمجمتها، فما كان من الزوج إلا ضربها كل يوم على رأسها بأي شيءٍ يقع تحت يده لحثّ الشيطان على ترك المكان. وبعد رحيلنا بنحو ستة أشهر أو يزيد سمعنا أنها توفيت جراء إحدى تلك الضربات على الرأس، والتي يبدو أنها كانت قوية وقاسيةً بشكل استثنائي. أتذكّر أنها كانت امرأةً طويلةً وضخمة الجسم برأسٍ صغيرٍ نسبيًا مقارنة بجسمها، وفي كل مرة كنت أتخيل كيف يهتزُّ ذلك الرأس الصغير من ضربات الزوج بينما يبقى الجسم الثقيل ثابتًا على الأرض كان يصيبني ارتعاشٌ وبرودٌ لا يتركاني إلا بعد ساعاتٍ من الانشغال بأمرٍ آخر. بقيت صورة الرأس المهتز كالنابض كابوسًا بالنسبة لي لوقتٍ طويل، حتى إني قفزت فوق كل الفقرات التي تتحدث عن النوابض في حصص الفيزياء طوال أعوام دراستي.

كانت حديث نساء الحي قبل إصابتها تلك، فقد كانت امراةً قويةً ومثابرةً ونشيطةً نشاطًا لافتًا للنظر، تستيقظ قبل الضوء، تحضّر الإفطار لزوجها قبل انطلاقه إلى عمله، فما إن يغادر حتى تقوم بإعداد الطعام لأولادها الستة، فتُلبسهم ثياب المدرسة النظيفة دائمًا، وتقودهم بنفسها إلى المدرسة في الوقت المحدد دون تسجيل تأخيرٍ واحدٍ على مدار أعوام دراستهم، لتعود بعدها لعملٍ متواصلٍ ومنهكٍ من إعداد الغداء وترتيب وتنظيف البيت الواسع المكون من ستّ غرف. كانت موضع حسد الجارات لنشاطها وحيويتها تلك ولنظافة كل ما يتعلق بها نظافة منقطعة النظير. هذا ما كانت تردده أمي ومن بعدها أبي الذي روى مراراً قصتها بالكثير من التأثر. دأبت الجارة على القيام بأعمالها كلها بتفاؤلٍ وحماس ثم مع الوقت بدأت تفعلها بعصبيةٍ وغضب كما لو أنها مرغمة ومدفوعة بهوس شيطاني. ومع أن الأمور كانت في معظم الأحيان من أفضل ما يكون داخل بيتها، إلا أنها كانت تشتكي من عدم كفاية جهودها ومن عسر نيل الكمال فيما تفعل. كان طفلها السابع في شهره الثالث عندما بدأت هذه النوبات بالظهور لديها، وتوفيت قبل أن يُكمل الرضيع عامه الأول.

ليس غريباً أن أتذكّرها بعد هذه السنوات وأشعر بالألم الذي شعرتُه آنذاك حين سمعت بموتها. أستطيع تذكُّر الألم تمامًا، يدٌ خشنة تمتد لتقبض الأحشاء والأوعية الدموية في المنطقة ما بين القلب والمعدة، وحِرقةٌ تصعد وتهبط كريح لاهية في مجرى التنفس. ليس غريبًا أن أتذكرها الآن، ليس غريبًا أبدًا.

كيف نعيش ببساطة ؟

- الشمس لطيفة هذا الصباح. أحضري فنجان قهوتك ولنجلسْ على الشرفة، قال ديدار.

- لم أعد أستسيغ مذاقها.

- جيد. من الأفضل تركها لوقت.

بعد صمت قال ناظرًا أمامه مباشرة نحو الأبنية البيضاء قبالتنا:

- هؤلاء البناؤون أخذوا وقتًا أطول من اللازم للبناء.

- كم عددها؟ لا يمكنني عدّها من هنا.

- اثنان في الأمام واثنان في الخلف، والخامس على الجانب الآخر. لكن طاقم العمل كبيرٌ أيضًا.

- ما رأي هؤلاء الذي يسكنون البيوت العشوائية يا تُرى بينما يرون بيوتهم تُستبدل بهذه الأبنية الحديثة التي لا يستطيعون شراءها أو استئجارها على أية حال؟

- أعتقد أنهم قدموا اعتراضًا، لكن البلدية رفضت طلبهم وقدمت تعويضًا للمتضررين.

- هذا ليس عدلًا.

- نعم ولا، فهذه بيوت عشوائية بناها أهلها دون الرجوع للبلدية.

- لكنها لم تكن منظّمة في الأساس، وبعدها حين عنّ على بال البلدية أن تبدأ التنظيم طردتهم من ديارهم.

- لا تُشغلي نفسك بهموم الناس.

- هل أتعب إن شغلتُ نفسي؟

قصدتُ السخرية من طريقته في توجيهي وتابعت:

- لا يمكنني الاهتمام طوال الوقت بنفسي فقط، أحتاج إلى الآخرين وإلى الحديث عنهم وإليهم.

- هذا ليس حديثًا، ليس حديثًا إليهم ولا عنهم. أنت تبحثين بالتحديد عمّا يبدو لك مشكلة.

- حقًّا؟ تبدو مُحللًا رائعًا حين يتعلق الأمر بلوم الآخر.

- الأمور واضحة، تستطيعين بسهولة أن تزعجي نفسك من أجل أغرابٍ لا شيء على الإطلاق بينك وبينهم. تابعَ وقد بدا واثقًا من حكمه:

- انظري إلى نفسك. إنك تتحولين إلى شبح يومًا بعد يوم.

- أترى ذلك؟

- أجل، أنت لا تعيشين ببساطة، وصراحةً لم تعيشي يومًا ببساطة.

- وماذا يفعل المرء ليعيش ببساطة؟ سألت وغبت فعليًا، أيًا كانت إجابته فإني تلقيت سهمي آنفًا.

- لا أعرف. يعيش فحسب.

لم أستطع إنهاء الحديث ودّيًا، مع أني كنت قد صمّمت منذ البارحة على جعل الأمور أكثر إشراقًا ولو ظاهريًا. شرعت بالبكاء، وأكثر ما يكرهه ديدار فيّ هو استبدال الحديث بالدموع والبكاء. بينه وبين تفهّم دوافع المرء لذلك بونًا شاسعًا.

اتكأت على صندوقٍ خشبيٍ فارغ مرمي على الشرفة، لم تكن لي رغبة في النهوض. أتم ديدار قهوته بضيقٍ كبير وقضينا الباقي من النهار دون أن نتبادل كلمة واحدة.

يقول عني

يقول عني كل الأشياء التي سمعتها عن نساءٍ غيري. حتى في طرح مشاكلهم أو حلّها لا يتمكنون من إيجاد صيغ جديدة. لقد صنعوا عالمهم وسمّوه وحدّدوه بكل حسم. أيُعقل أن كل مًا في هذا العالم متشابهٌ لهذا الحد؟ وإن كان التشابه واضحًا إلى هذه الدرجة لِمَ لَمْ يجد أحدٌ حلًا مرةً واحدةً وإلى الأبد؟ الأحرى أن المرأة جُعلت لغزًا لإبعادها، للكف عن إرضائها، للكف عن أخذها وأخذ احتياجاتها بجدية، هل تؤخذ الطاولة والمزهرية بجدّية؟

سأقول له، سأقول له كل ما أفكر به. يمكنه أن يغلبني بالكُتيّبات الجاهزة في التصنيف، يمكنه تصنيفي بسهولة باعتباره عاجزًا عن فهمي.

سألته بينما كان يرتدي منامته:

- ماذا نفعل بشيءٍ لا نفهمه؟
- ماذا؟
- ماذا نفعل بشيءٍ لا نفهمه؟
- نتخلى عن المحاولة.
- أو نجعله امرأة.
- ما قصدك؟

- قصدت خاصةً إن كانت امرأة.

أبدى انزعاجًا واحمرّ وجهه من الغضب قليلًا. لكني لم أقصد استفزازه، كنت في صدد الكشف عن هذه الحقيقة بالتحديد، حقيقة أننا نجعل المرأة لغزًا لنكف عن فهمها.

ساعداي

ساعدايَ شجرتان وارفتان... يقطعهما - كلما أزهرتا - فأسُ حطابٍ جاهل.

أشعر بالفأس وضربتهِ... ها قد سقطتا مني.

العيش على مستوى سطح الأرض

رغم أني لا أحظى بنوم كافٍ إلا أن الأحلام لا تكفّ عن مضايقتي، لا تشبه أحلامي السابقة حين كنت أخرج من الحلم برضى صغير أو بحزنٍ بسيط ما ينفكّ يضيع حتى قبيل انقضاء الساعة الأولى من الصباح. أحلامي هذه الفترة عبارة عن وشوشات طويلة، تشبه ضجيجًا يصدر من بيت جيران غامضين، الكثير من الصراخ، وصوت ضربات، وزعيق، ثم قراءات أعرف أنها قراءات من كتابٍ ما، لكني لا أتبين كلماتها ولا أفهمها البتة. لا تنتهي هذه الضوضاء عادة باستيقاظي، بل تبقى ساعاتٍ طوالًا بعد صحوتي ترن في أذني. إنها لا تشبه الكوابيس حتى، أكاد أعتقد بصدق أن مُجَنّدين حقيقيين يعملون في الطابق الأعلى لمضايقتي. قال ديدار إن الطابق الأعلى تسكنه امرأةٌ كبيرةٌ في السن، لكني لا أصدقه، ربما قال هذا لطمأنتي، فليس معقولًا أنها سكنت هنا منذ فترة قريبة ولم أشعر بها تنقل متاعها. قد يكون من السهل التأكد إن كان ثمة أحد يسكن حقًا البيت أم لا، ليس عليّ سوى الطرق على الباب والتذرّع بأية حجّة، لكني لن أفعلها، أخشى أن تكون مخاوفي حقيقة.

ربما يكون ديدار صادقًا، فمنذ متى وأنا أهتم بالجوار أو يثيرني فضول معرفة أحد. إني بليدة كفاية لمثل هذه السلوكيات التي تنتمي لعالم الناس الطبيعيين.

امتلأت - وأنا أفكر بهذا- بغضب كبيرٍ تجاه نفسي. لم يكن بإمكاني التعاطف مع هذا الانحلال في ذاتي، هذا الانفلات من قبضتي. وفكرت للحظات أنّ عليّ اتباع كل ما لا يروقني بالتحديد، أن عليّ -لكي أخرج من هذا الضيق- أن أولي أذنًا لما يقوله العالم لا لما تقوله لي نفسي العفنة. وهكذا أخرجت بعض الكبدة وشرعت أنظّفها وأوقد الغاز على عجلٍ قبل أن يطغى عقلي الآخر ويحرفني عن الطريق. بدا لي أن تناول الكبدة سيكون التحدي الأهم. تركت الكبدة على النار لوقتٍ زائدٍ عن الحاجة، وفي أعماق نفسي كنت أتمنى لو تتبخر من أسفل القدر كما يتبخر ماءٌ حين يُترك وقتًا طويلًا على النار، لكنها لم تتبخر وبدا شكلها حين سكبتها في الصحن أسوأ بكثير من كل المرات السابقة، لكني كنت أحتفظ بعد ببعض العزيمة.

خرجت بالصحن إلى الشرفة ورحتُ أتناول الكبدة محاوِلةً تناسي طعمها الجاف في الفم، والسير العسير للّقيمات في الحلق والخبط المزعج على جدار المعدة، كانت الكبدة تصارع في داخلي كأنها ترفض هي الأخرى الخضوع لعالمي. على الأرض، أسفل البناء، ثمة الأطفال يلعبون، أصواتهم تملأ المسافة بينهم وبيني، حتى إني شعرت لوهلة أني أسكن في مكانٍ محمولٍ على ضحكاتهم وأصواتهم لا على أبنيةٍ وحجارة.

أنستني أصواتهم كوابيسي البغيضة وطعم الكبدة المنفّر والتحدي اللعين الذي حمّلت نفسي عناء الالتزام به. بدا الأمر في غاية البساطة، أن أخرج إلى الشارع، ألعب مع الأطفال، أغضب لأن ثمة ما يدفعُ حقيقةً للغضب وأبكي لأن ثمة سببًا وجيهًا للبكاء، ثم أضحك بقوةٍ

وحماسٍ كما يضحك هؤلاء الصبية وهم يتساقطون كالقطط الرّخوة عن ظهر عربةٍ بعجلةٍ واحدةٍ مكسورة.

مكنني هذا التفكير من الإجهاز الكامل على الكبدة، والشعور برضى جارف.

في تلك الليلة، وبينما كانت العتمة تغطي الخارج تمامًا، فكرت أن ضيقي ربما مصدره هذه الإقامة في العلو، أني لو كنت على مستوىً واحدٍ مع الآخرين، أي في تماسٍ حقيقي مع سطح الأرض، لربما أُنقذت ببساطة. كانت السيدة تنظر إليّ عندما حاولت الاستسلام للنوم، ربما كانت توافقني على فكرة أن العيش بتماسٍ مع الأرض بابٌ للنجاة. أغمضت عيني بقوة.

أنتحر، لا أنتحر، هذه هي القضية

لو وضعنا الأذى الذي تنويه السيدة بي جانبًا فإني بدأت أقتنع ألّا مكان لي هنا، لكن أحد أهم الأسباب التي تُثنيني عن فعل ما أراه عين الصواب هو نظرة ديدار لي والذكرى التي سأخلّفها له عني. صحيحٌ أنّ التفكير برأي شخصٍ ما بك بعد موتك عبثيٌ تمامًا، إلا إنّي أهتم وأراعي الأمر. ليس من بابِ التعاطف مع ديدار. إنه شيءٌ لا يمكنني تبريره، مع ذلك فإنه يقف عائقًا حقيقيًا أمام إقدامي على بتر أيامي. يبدو الأمر فعلًا أموميًا عفويًا، أن أفكر بنفسي وما أرغب ثم أفكر كما يفكر هو، لأُوجِدَ بعدها توازنًا ملائمًا لا يجرح على وجه التحديد حساسية الآخر. كل هذه العملية لا تعدو أن تكون قدرة مجانية للتخلي عن آخر حقٍّ لي في الأصالة والتعبير عن نفسي بحرية.

أتخيّل ديدار قادمًا من العمل، يفتح الباب ويستدير بوجهه ناحية غرفة نومنا حيث أُرضعِ غالبًا ماف، يضع كيس الطماطم والعنب والبطاطا من يده، يحاولُ الابتسام، وينبغي القول إنه نسي كيف يبتسم بوجهي مذ بدأت أوضاعي تتدهور. أتخيّله يتقدم خطوة، اثنتين، ثلاثًا نحو باب غرفة النوم، يرى النافذة مفتوحة على اتساعها، لكنه لا يراني. على شماله تكون الطفلة نائمةً من التعب، أو لا تكون هي الأخرى في مكانها. لن يفهم في البداية، ثم سيكر الشريط كله في أجزاءٍ من الثانية أمام ناظريه. يرى بعينه في هذا الجزء من الثانية فيلمًا هو بالضبط تلك

الحكاية التي رفض على الدوام النظر إليها واستيعابها بجدّية وتصديقها. أتقمّص ألمه في تلك اللحظة وتبدو كل آلامي فجأةً - فيما لو كنت حيةً بعد- تافهةً وسخيفةً وجاحدةً أمام انهيار هذا الرجل.

مع أن ديدار لم يأخذ إلى الآن وضعي النفسي السيئ مأخذًا جديًا، إلا أني لا أجد في نفسي القوة الكافية لطعنه بهذه البرودة. أسمعه يقول جملته المعتادة: «ياخيبتي بك، ألهذا الحد لا تشعرين بي؟»

لا يمكنني عندها العودة من الموت لأخبره أن لا علاقة للأمر بشعوري حياله. الأمر مُعقّد أكثر مما يمكن أن يتخّيله أحد.

ربما سبب هذا التفكير في مصيره نابعٌ من آماله الكثيرة التي يبنيها عليّ، بالكلمات على الأقل. إذ يعتقد ديدار أننا مربوطان بسلك، وأننا لا بد أن نتناغم وفق خطٍ متعرّجٍ واحد، مع العلم أن تعرجات الخط يجب أن تحدث وفقًا لما يراه هو مهمًا وجديًا وحقيقيًا. عن نفسي، أيقنت منذ مدة طويلة أن لا شيء يربطنا سوى فكرةٍ ذرائعيةٍ باهتةٍ لا أعرف بما يمكنني تسميتها، لكنها تلك التي اتفقنا عليها يومًا حين قررنا الارتباط، مع أن هذا الارتباط عبثيٌّ ويُثبتُ عبثيته كل يوم.

ولذا فأنا أتغاضى كثيرًا عن عدم تفهّمه لحالتي. ليس كرمًا مني، بل وعيًا باردًا يقول لي إن بيننا حواجز كثيرة، شعورية في أكثرها.

المتناسق والفوضوي

نسيت منذ وقتٍ طويل كل شيءٍ عن الصراع بين المتناسق والفوضوي لكن ما ذكّرني به اليوم هو حوار الصباح بيني وبين ديدار، فحواراتنا عادةً صباحية، أكون في قوتي بعد، قبل أن أُترَك طوال اليوم لأشباحي. لا أتذكر تفاصيل حديثنا، لكني أذكر أننا تبادلنا كلمة «ولكن» ستًّا وثلاثين مرةً خلال الوقت القصير ذاك، أما البقية فلن أقوى على كتابتها حتى لو تذكرت أكثر. بدأ الأمر ببعض الشكوى من وخزاتٍ كالإبر في ساعدي اليمين، وانتهى حديثنا بالنهاية المعتادة حيث أبدو أني سقطتُ لتوّي من كوكبٍ آخر.

تساءلت حين خرج ديدار إلى عمله لِمَ يبدو الرجال متّسقون مع عالمهم؟ لِمَ هم ما هم عليه؟ يتمايلون تمامًا مع إيقاع العالم، لا خطأ، لا جيوب أو جُرابات يحملون فيها أشياءهم التي لا يسعها العالم كما أفعل أنا، أو كما تفعل نساءٌ أخريات مثلي؟ ولم تكن هذه الأسئلة غريبةً علي، فعدت بذاكرتي سريعًا إلى الوراء، وتذكرت أن آخر معركة لي كانت نتيجتها أن اتساق الرجال مع العالم ناجمٌ عن توافق العالم معهم لا العكس. وهذا التوافق لم يأتِ من فراغ، لم يكن يومًا قدرًا أو طبيعة، بل تطور عبر الزمن وفق حاجة المتحكّمين. وهكذا فإن شيّدنا عالمًا على قياس مُكونٍ واحد، فهذا سيسمح لكل جزءٍ من هذا المُكوّن أن يكون في مكانه الصحيح وعلى أرضه بكل يسر، أما المكونات الأخرى

التي تنتمي للمكان دون أن يكون الأخير قد شُيّد وفق مقاساتها، فإنها ستواجه على الدوام صعوبةً في التوافق والتأقلم مع العالم.

كان عليّ إنجاز بعض المهام في البيت، وقد سُعدت لوهلةٍ أن ثمّة ما يمكنني التعلّق به، غسل الأطباق، طوي الثياب، صنع قالب حلوى بسيط لعيد ميلاد ديدار الذي يصدف اليوم. لكني بقيت أحمل حوار الصباح في ذاتي، وكان ثمة ضيقٌ رضيع يتحرك داخلي عزوته إلى غضبي من حملي لجيوبي على الدوام.

مستلقية على فراشي بعد الظهيرة ونظري معلّقٌ في السقف ورائحة الحلوى التي أعددتها تنخر أنفي، فكرت كم جيبًا أو جُرابًا أحمل معي؟ وإن مُلئت جيوبي، إن وضعت فيها بين الحين والآخر كل ما قصصتهُ من النموذج الموحّد للعالم، ما أنا فاعلة؟ أين يمكنني دفنُ القصاصات التالية؟ خاصة وأني ألاحظ في الآونة الأخيرة انهماكي بدلًا من العيش بالقصقصة والتفريق والفصل بين ما لي وما للجماعة. هذا هو قدري، قدر الذين لا يعيشون إلا بحمل جيوبٍ إضافية؟

عليّ الاعتراف أني لم أعد أشعر بوجودي. جيوبي ملأى بأشياءٍ لا تنتمي إلى العالم، إلى هذا العالم. أنا نفسي جيبٌ كبير أختبئ فيه بكليتي من توحّش العالم المتناسق.

الكنغر التعس

يبدو أني غصتُ في نوم عميق كعمق نوم القتيل. شعرت برضا فور استيقاظي لولا عبارة كانتْ معلقة على طرف لساني أعادتني لسلسلة أفكاري التي تركتها لدى غفوتي. كانت العبارة حاضرة على لساني فيما دمعة متجمدة تركت أثرها على هيئة بقعة بيضاء خشنة في زاوية عيني: «نحمل في مواجهة العالم الكثير من الجيوب، نضع فيها بين الحينِ والآخر كل ما تم قصقصتهُ من النموذج الموحّد للعالم. جيوبنا مليئة بأشياء لا تنتمي إلى العالم». كان هذا ما فكرت به قبل نومي.

قلت لنفسي كأني أكمل حديثي السابق: «كل ما أضعه في جيبي أنفيه من العالم. لكن كل تلك الأشياء لا تضيع، تبقى هنا، في جيبي، في جيب الكنغر التعس».

حقيقةً ليس لديّ أيّ سببٍ يدعوني للاستمرار أكثر. لا يمكنني حتى تخيّل كيف ستعيش ماف في بيت مغلق مع هذه الأم المجنونة، ستكون خلال سنواتٍ قليلةٍ نسخةً عني، نسخةً محروفةً عن النسخ في الخارج. ومن يدري، فقد ترافقها امرأة بثوب أسود كما ترافقني المرأة القصديرية الآن. فقط يمكن لمن لم يُنجب أن يضمن فناءه الكلي، أن يضمن موته بهناء. يبدو أن ثمة علاقةً بين تقلصات الرحم ورفض الانتحار. لا شيء يمنعنا من الإقدام على الموت سوى هذه الحبال المربوطة بأعناقنا: أولادنا. إذ كيف سأسمح أن تعيش ماف بذاكرةٍ عن

أم منتحرة؟ الأفضل أن أمسح ذاكرتها ونعود أصفارًا بعد أن حاولنا أن نكون أعدادًا وفشلنا.

كنت في السابعة من عمري عندما قمت بعدِّ حجارة حائط المدرسة من الأسفل إلى الأعلى، وهرعت بعدها إلى البيت لأخبر أمي أني اكتشفت كم سأعيش في الحياة. 56 عامًا. هذا ما أخبرتني به حجارة حائط المدرسة، والحائط لا يكذب، لايمكنه الكذب. ردت أمي بآليةٍ مخيفة: «كفى هراءً. في مثل هذا العمر لن تتمكني من رؤية أحفادك بعد».

أفكر الآن في أحفادي الذين لن يأتوا. كم هم سعداء، أحفاد الكنغر التعس.

استعارة الجسد

ساعداي ممدّدان على جانبيّ، ساقاي ملتفتان على بعضهما، إن أغمضت عينًا أرى بعضًا من أنفي وإن تنفستُ بعمق شعرت بأحشائي الداخلية كلها: عتمة البطن، الحواري الضيقة للقصبة الهوائية، الرئتان اللتان اعتادتا سحب الهواء وضخّه لدرجة الملل. أحرك أصابع قدمي، أحرّكهما كأنهما لعبة خشبية لا كأجزاءٍ مني. هذه الكتلة الحاضرة التي تسمى الجسد تتصرف وفق لائحة البرمجيات التي اعتادت عليها. ساعداي الآن مثلًا طفلان كسولان، بالأحرى طفلان خاضعان، نُسي أمرهما تقريبًا، إنهما هنا بدافع الحاجة، حاجتي أنا بالتحديد، لكنهما يتمنيان لو يختفيان. كذا الأمر بالنسبة للباقي من جسدي، كل جزء منه متمردٌ كسول، راغبٌ ورافض في ذات الوقت، بدائيٌّ ومتحضّر بشكل لا يمكن الفصل أو البت في انتمائه أبدًا.

وأنا أتأمل جسدي أتذكر بعض ألعاب طفولتنا، من بينها هذه اللعبة الغريبة.

الحقيقة أني لم أفكر يومًا بغرابتها، لكني وقد تذكرتها الآن أرى ما فيها من غرابة ودهشة. لا أتذكر الآن كيف خطرت هذه اللعبة ببالنا، وإن كنا نحن من اختلقها أم استلهمناها من ألعاب تقليدية أخرى. في اللعبة تأتي صديقتي التي تُمثّل دور الجارة وتستعير كل مرة قطعةً مني، مرة يدي ومرة ساقي وأخرى رأسي وأخرى قلبي، حتى لا يبقى

مني سوى صوتي، لكنها لسببٍ ما تعجز عن سحب صوتي ويكون هو قوّتي الأخيرة، فإن تمكّنتُ من الصراخ دون أن تتمكن هي من سدّ فمي بيدها أفوز وأسترجع كل قطع جسمي. في نهاية اللعبة كنت أحس بالعرق يتصبب مني، ويحفزني الانتصار في النهاية فيدفعني لإعادة اللعبة عشرات الجولات.

لا يبدو لي أن أجسادنا غائبة كما نتوقع، إنها تكتبُ معنا قصتنا، وتنهيها.

أقوم من مكاني، أسير باتجاه المرآة. أنظر لجسدي، فلا أرى سواي. يبدو جسدي كحصانٍ جامحٍ تم ترويضه بقسوة.

لو يتنازل حصاني الجامح عن أنانيته قليلًا لكنت خطوت خطوةً حاسمةً الآن.

الأمهات وفيل الماموث

يقول ديدار أن حالتي تزداد سوءًا. بدا متأكدًا من ذلك لا لأني أخبرته بذلك للمرة المئة بعد الألف، بل لأنه استنتج هذا بنفسه وقد قال بحزم لا يقبلُ الشك إني لا بد أُضخّم الوهم في رأسي، واقترح أن أختلط بالآخرين في البناء، وخاصة جارتي، تلك التي سكنت منذ فترة وجيزة في الطابق الرابع. لم أستسغ الفكرة نهائيًا ولكنني كنت أعلم أني لو خالفت فسيكون هذا سببًا قويًا لعتبٍ طويلٍ ومتكررٍ كلما اشتكيت من ضيقٍ ما. إنها قضية تشبه قضية تناولي لكبدة الدجاج تقريبًا. يجب زيارتها ولو لمرةٍ واحدةٍ لأجد في متناول يدي ما أُدافع به عن نفسي حين يُقال لي إني لم أفعل ما يجب فعله للتخلص من قلقي وتحسين مزاجي.

حملت ماف ذات ظهيرة ونزلت إليها. طرقت الباب وكلّي أملٌ ألّا تكون حاضرةً في البيت. للأسف فتحت الباب وابتسمت ابتسامةً عريضة، عريضة لدرجة أني شعرت من فوري بالتعب.

كانت فكرتي عنها كما تخيّلتها تمامًا: إنها من النوع السعيد. حقيقةً لم أتنبّأ بشيءٍ حولها ولم أتخيلها حتى، الأمر ببساطة أني خشيت مقابلة أحد من فئة السعداء، ليس في هذه المرحلة من حياتي على الأقل. بكل تأكيد، أحب وأسعد بصحبة المرحين، أحبهم جدًّا لكنهم يختلفون عن السعداء. المرحون لهم مزاجُ المرح، حالةُ المرح، لكنّ هذا لا يعني أنهم مُصمتون كحائطٍ خراساني كما السعداء أو الراضين. هذه الفئة الأخيرة

بدت لي دائمًا ككُتلة مُصمَتة، كجدارٍ خُراساني عالي الكثافة وقد تم تحييد الثغرات والفوارغ فيه بواسطة رجّاج ميكانيكي. يتملّكني دائمًا في مقابلتهم الشعور بأني لن أتمكن أبدًا من النفاذ إليهم، أنهم ما هم عليه، ولذا لم أكن أبذل أي جهد لدى لقائهم، وكنتُ أقدّر سلفًا وبرضا تام أن كل أحاديثنا لن تكون سوى طأطأة رأسٍ متكررةٍ وابتسامةٍ مفرطةٍ على الشفاه.

الحق يقال إن جارتي كانت مضيافة واستقبلتني كأننا صديقتان حميمتان. أخبرتني أنها ليست غريبةً على البلدة، بل تنتمي إليها وقد اشترت هذا المنزل منذ أن كان في طور البناء، لكنها لم تسكنه فور بنائه لأنها اضطرت للعيش لمدة عامين مع والدتها في مدينة أخرى إلى أن وافتها المنية. قالت إنها في وفرة الآن ولن تقطن من جديد في الحواري البائسة القديمة للبلدة. كانت محقة، فهذه البيوت البيضاء كنقطة ضوءٍ وسط عتمة هذه البلدة وبؤسها تليق بسعادتها. أخبرتني أيضًا أنها وضعت منذ أربعة شهور، صبيًّا أسمر الوجه بعيون خضراء زيتونيةٍ تقريبًا. ظل الطفل طوال فترة زيارتي لها هادئًا هانئًا في سريره في غرفة النوم.

حمَلت الجارة ماف وقبّلتها بفرحٍ عارم، بدت ابنتي في حضنها في مكانها الصحيح، وطفا رضا جارف في المكان، حتى إني شعرت لوهلة أني أكاد أغرق في حليب هذه المرأة البدينة.

أتخيّلُ الأمهات المثاليات دائمًا بالملامح التالية: جسمٌ مكتنز، رضا طافح، ضحكة وخفة حركة، عيون تتحرك هنا وهناك بلا أية حيرة، يدٌ خشنة بظفرٍ مقتلع أو مكسورٍ أو مصابٍ بالفطريات. كانت هذه السيدة مطابقة تمامًا لصورة الأمهات في مخيلتي، خاصة حين أطلقتْ ضحكةً لا أتخيّل أني سمعت مثيلًا لرنين الرضا فيها في حياتي.

وبينما كانت تتحدث عن أطفالها الأربعة غصتُ في تفكيرٍ عميقٍ حول صورة الأمهات، وتساءلت في قلقٍ إن كانت الأمهات سينقرضن أيضًا نتيجةً للضيق الجيني أم سيتجمّدن في الجليد والبرد يومًا كما فيل الماموث.

حملتني جارتي على الكذب أكثر من اللازم حين سألني ديدار عن زيارتي لها، فقد اضطررت للقول إنها كانت امرأةً سلبيةً، بائسةً وكثيرة الشكوى، بالضبط عكس ما كانت هي عليه. قال لي بسخريةٍ لم يفلح في مداراتها: «كان يجب أن تتفقي معها إذن».

عيون

تخلصت من إلحاح ديدار إذن. صحيح أني أود معاشرة الآخرين والاختلاط بهم، لكن ليس على طريقة ديدار. لا يمكنني إدخال الناس إلى حياتي بهذه الطريقة الآلية. فمع أنها تبدو طريقةً سهلةً ومنطقيةً جدًا ويصادق الناس بعضهم عادةً بهذا الشكل، إلا أني أشعر أن هذا غير مرضٍ لي الآن. يُربكني الآخرون بقدر حاجتي إليهم.

عليّ القول إن صداقاتي بدأت بالتقلّص تدريجياً أو تلاشت كاملاً، حتى على الهاتف. كان آخر اتصال أجريته على الإطلاق هو الاتصال بصديقتي صاحبة البيض المقلي، شعرتُ بتخمة الحوار بعدها لعدة أيام وحمدتُ الله أنها لن تتمكن من المجيء لزيارتي بسهولة.

أرى أن الآخرين عبارةٌ عن عيون، تزداد حاجتنا إلى الآخرين بازدياد حاجتنا إلى عيونٍ ترانا وتراقبنا. عن نفسي، جُلّ ما أتمناه هو أن أختفي.

اختراع الآلهة

في البدء شعر الإنسان بحاجته إلى عينٍ كبيرة، أكبر وأكثر شُمولًا من العيون المتفرقة والنظرة النسبيّة لأشباهه، فاخترع الآلهة.

أنا بحاجة بالفعل إلى الاختفاء، وأتساءل إن لم تكن هذه الحاجة في أقصى ذروتها في اللحظات التي أتحضر فيها للقفز من النافذة.

الزمن

شعرتُ فجأة أني عشت زمنًا كان قياس المعاناة يتم فيه بالأمتار. فبعد مترٍ من اليأس يمكنني أن أقفز متحرّرة، بعد مترين من الألم سأغسل وجهي وأعود إلى توازني السابق. الآن أبدو مصابة بشيء من قبيل العمى الزمنيّ، فأنا لا أرى الزمن ممتدًا، ولا متقطعًا إلى أزمنةٍ متفرقةٍ. لا يمكن حساب زمني الآن بالأمتار لأتيقّن من وجود نهاية لمعاناتي. أنا فاقدةٌ لكل إحساسٍ بالزمن، ولم يعد لديّ أي إيمانٍ بتأرجح الحال وبأن الوقت سيكون سيّئًا، رديئًا أحيانًا وجيدًا في أحيانٍ أخرى. أراه ممتدًا بلونٍ واحد، لون اليأس المستمر.

أكتب هذا الكلام بعد انقطاع، فقد مضى وقتٌ منذ محاولتي الأخيرة لإيجاد حلول، أنا لا أفكر الآن إلا بطريقة ملائمة للرحيل. لا يبدو أني استسلمت بسهولة، فأنا لم أجد حقيقة ما يمكن عمله. حاولت أن أشرح لديدار لكنه لم يستجب لشيء، قد أبدو فعليًا في وضعٍ أفضل في حضور الآخرين. أين تذهب كل تلك الأفكار السوداء فيّ حضورهم؟ كيف تجد لنفسها متسعًا داخلي؟ لو أنها تخرج من قمقمها لربما سوّدت هذه الجدران البيضاء كلها.

خطوة جديدة

أتابع كل يوم حركة الرجال خارجًا، أشياءٌ كثيرة تقرّبنا، إني أستمد من حضورهم الحياة. في كل مرة أسمع فيها صوت الشاحنة أخرج إلى الشرفة. ينزل السائق، يجلس بين بعض الرجال ويبدؤون بشرب الشاي، أستطيع أن أتذوقه معهم كأن الكأس في يدي، شايٌ ثقيل المذاق ومُحلّى أكثر من اللازم. انتبهت إلى أني أتقمص السائق أكثر من البقية، أني أشرب الشاي بكأسه وأرفع الكأس بيده.

في كل مرة أنضم فيها للخارج لبعض الوقت، أتناسى الداخل بكل ما فيه.

أثناء مراقبتي للشاحنة اليوم، ومع مرور بعض الوقت، شعرت بشيءٍ ما يسترد نوعًا غائبًا من السعادة فيّ، استمر الشعور لثانيتين ربما، قبل أن يختفي. لقد فكرت حقيقة بأن حالتي ربما ستكون أفضل لو أني نزلت إلى الخارج، إليهم، إلى عالم الرجال والعمل والأشياء. غير أن ثمة فكرةً أخرى مضادة للأولى خطرت على الفور في بالي، كانت مخيفةً لدرجة أنها دفعتني بقوة ريح عاصفةٍ نحو الغرفة. تركتُ الرجال لخارجهم الذي بدا مخيفًا فجأة، وألتجأت إلى الداخل كحلزونة خائفة.

لن أفكر أكثر.

سوف أحسمها بهذا الشكل

لم أكتب يومياتي منذ مدة، لكني لم أتوقف لثانيةٍ واحدةٍ عن التفكير. إن الخاطر الأخير الذي خطر لي جمّدني طوال هذه الأيام.

الساعة الرابعة عصرًا، منذ الصباح والفكرة لا تتزحزح من عقلي. كنت أنتظر وصول الشاحنة بقلبٍ خفّاق. لم أهدأ وكانت مشاعري تتناقض وتتغير بين فرحٍ عارم وانقباضٍ شنيع. «إن أتت الشاحنة في موعدها، فهذه إشارة إليّ أن ماً سأقوم به صحيح»، هذا ما قلته لنفسي، وها قد أتت في موعدها.

تجمّع الرجال من جديد، شبّانٌ يافعون وبالغون، وكهلٌ أميزه من هنا من بياض شعره. أفرغ السائق حمولته في المكان المُشار إليه، حجارة للعمارة الجديدة التي يبنونها هنا بينما الحرب تهدم أبنيةً مشيدة ومأهولةً في أماكن متفرقةٍ كثيرةٍ في البلاد. ستكون عمارةً بيضاء ناصعةً مثل التي أقطنها. ما زال العمل في بعضها يجري في الأساسات، القضبان الحديدية تنتصب واقفة، يمكنني ملاحظة تغيّر طفيف كل يوم فالرجال يعملون بكد. أُحضر كرسيًّا إلى الشرفة وأجلس بهدوء، لا أزيح نظري عنهم أبدًا وأستلذّ بتحديقي. إنهم يتحدثون، لا يبدو السائق كواحدٍ منهم، أستطيع تخمين ذلك من تقديم أحد الشبان الشاي له. لو كان واحدًا منهم لربما صب بنفسه الشاي. ربما. أطيل النظر، يجلس الرجال القرفصاء وهم يشربون الشاي في هذه الاستراحة القصيرة، يتحادثون،

السجائر لا تترك أصابع أيديهم الخشنة، يضحكون ويصرخون بقوة كأن لا شيء يمكنه أن يُعكر أمزجتهم، كأنهم يصنعون العالم بنفسه لا أبنية فحسب.

يسحرني، رغم أني طُرِدتُ خارجًا، انسجام الرجال مع عالمهم. إنه عالمٌ من التناسق والانضباط، بلا فجوات أو ثغرات. وفي الركن الظليل الذي التجؤوا إليه من حرّ بعد الظهيرة هذه بدت لوحة الرضا مكتملة، حتى أنها عدتني تقريبًا.

يبقون على تلك الجلسة لمدة تصل إلى نصف ساعة، يتحادثون خلالها، يصعد السائق بعدها شاحنته ويغادر. أعود إلى غرفتي وعقلي مضطرب، سوف أحسمها بهذا الشكل، نعم.

محبوبتي اللذة

تخلصت إذن في الأيام التالية من رعبي من النافذة، من درج الإنقاذ ومن سكاكين المطبخ، فقد كانت ثمة طريقة واحدة للموت، وقد اقتنعت بها كأن لا خيار آخر أمامي. كنتُ أتابع بلا أي تأخير مواعيد حضور الشاحنة الكبيرة، لم يكن موعدها يوميًا، لكنها إن أتت كانت تأتي في الرابعة تمامًا، بالضبط في ساعة ذروة قلقي. وكان هذا التزامن المدروس مهمًا في حد ذاته.

يمكنني القول إن فترة ترقب الشاحنة كانت عبارة عن فترة هدنة، كنت أراقب وأهضم ما يقدّمه لي عقلي ببرودة وحكمة. بدا لي أن الترقب ومراقبة السائق والشاحنة وعمل رجال البناء في مجمله جزءًا من عملية تقبل نهايتي.

وقفت الشاحنة في مكانها اليوم، وعمل بعض الرجال بكدٍّ على نقل الحجارة، أما السائق فجلس كما كل مرة، يشرب الشاي وينفث دخان سيجارته عاليًا. إنهم بعيدون كفايةً ولكن أصوات صراخهم وضحكاتهم تصل إلى أذني. أشعر أني أنتمي إليهم، كأنهم عائلتي، أو لنقلْ مَن سأنتمي إلى أرضهم قريبًا.

يُنهي السائق كأس الشاي، أتأمّله كأنه ضحيتي. يجلس على حجرٍ من الحجارة المبعثرة هنا وهناك، تلمع نظارته بسبب انعكاس ضوء الشمس عليها فيبدو لي كما لو أن الشمس تخرج من محجريه. قميصه أبيض والكمّان مرفوعان حتى المرفقين. أتأمل ساعده الأسمر الخشن، يبدو لي أنه قد جاوز الخامسة والأربعين من عمره، في وسط العمر، في الحد الذي يجد فيه الإنسان نفسه مقذوفًا بحزم وجديةٍ من عالم الشباب نحو النضج الأكيد، في سنٍّ تصبح فيه الخياراتُ قاب قوسين أو أدنى. يصبح تضاؤل الخيارات مع الوقت مزيّةً وإيجابية، فمعها يظهر الجانب الحقيقي في الإنسان، يصبح المرءُ حقيقيًّا. الخيارات المفتوحة لا تصنع بشرًا حقيقيين غالبًا بل قردةً واهمة برؤوسٍ كبيرة.

يتمشى السائقُ قليلًا مراقبًا عمل الرجال الآخرين. يبدو هادئًا ورزينًا جدًا، أتخيله أبًا لعائلةٍ سعيدة. يبتعد قليلًا عن الآخرين، يسير متفحّصًا الأساسات والمبنى المستقبلي، يقطع الطريق سائرًا باتجاه المبنى الذي أقطن فيه وعينه تتحرك بلا فضول هنا وهناك على مستوى نظره. شيءٌ غريبٌ هذا الذي يحدث، إنه يتقدم باتجاهي تمامًا، يسير متمهلًا، بلا قصد، لكنه يسير نحوي. يتوقف، ينظر إلى الخلف، إلى الرجال الذين ما زالوا ينقلون الحجارة. يمشي ببطء ويتكشّف لناظري قليلًا قليلًا. يسير ببطءٍ متحاشيًا الطريق الإسفلتية الحارة قيد الإنشاء. تبدو نظراته كباحثٍ عن شيءٍ بلا إلحاح. أقوم من فوق كرسيّي، أسندُ ذراعي إلى قضبان الشرفة وأمدُّ رأسي قليلًا، لقد ابتعد بمسافةٍ كافيةٍ عن البقية، وليس واضحًا أبدًا لِمَ اتخذ هذه الوجهة بالذات، نحو شرفتي بالذات. أقف مشدوهةً، لا أثير حركة. فجأة يرفع رأسه ناظرًا إلى الأعلى. عيناه نافذتان. يرى أني واقفة أنظر إليه، فينظر دون أي استغراب. يثبت نظره مطولًا وأبقى على ما أنا عليه. يخفض رأسه ثم يعيد رفعه. أبقي نظرتي ثابتة.

لا أعرف كم تبادلنا من النظرات. بابتسامةٍ حنون وعينٍ باسمة مد يده للأعلى نحوي، وامتدّ ساعده الطويل ليصل شرفتي في الطابق الخامس. كان ساعده قريبًا جدًّا وقد ميّزت الشعر الكث عليه. بعدها بدأ يتردد، لكنه رفع رأسه مرةً أخرى. ومع نظراتٍ صارت واضحةً بيننا عاد إلى الرجال الآخرين. بقي اليوم لمدة أطول من المعتاد. ثم صعد شاحنته وابتعد.

لأول مرةٍ منذ شهورٍ طويلةٍ شعرتُ برغبةٍ مُلحّة في مداعبة نفسي، وفعلتها. خرجت اللذة مني حازمةً ومنفتحةً على العالم، قويةً ومكتفيةً بذاتها. لم أكن قريبةً لنفسي وجسدي هكذا منذ وقتٍ بعيدٍ جدًّا. كانت المرآة في غرفة الحمام قبالتي كبيرة، ربما وضعتها الملائكة في طريقي. أحب أن أرى تحولات وجهي حين تصعد اللذة إليها. أراقب وجهي واللذة معًا، يبدأ الأمر بحنانٍ وحبٍّ كبيرين، يذكّراني بكل اللحظات الجميلة التي عشتها قبل أن تجف روحي، والعجيب أني اقتنصت جمال اللحظات الماضية كأني أعيشها من جديد. انتشيت ورأيت كما يرى النائم وجه ديدار القديم، حليبي اللون بنمشٍ أحمر على الأنف، وكان له ساعدٌ أسمرُ ومشعر.

أترك وجهي وشأنه فيتلوّن ويتغير من هدوءٍ ناعم إلى عنفٍ متواطئ. تبتدئ بعدها الابتسامة بالظهور رغمًا عني، ولا تتلاشى إلا بعد أن تترك وجهي كلّه فريسةً لتحوّلٍ متضاربٍ بدائيّ. أغمض عيني نصف إغماضة وأسترق النظر إلى تفاصيل اللحم الثائر، الثغر يُطلق أنّاتٍ قصيرة وهادئة، الأنفُ يضيق، الجبهة تشتعل، ويتهيّأ الجسد بأكمله للهدية، ومن ثم تأتي محبوبتي اللذة فيستقر الفرح في مدخل القلب وأشعر بعدها بامتنانٍ عميق للعالم، للعالم بأكمله.

أخرجُ من المعركة الناعمة كاملة الرِقّة، أنظر إلى نفسي في المرآة نظرةً أخيرةً وأخال أني أرى امرأة تهم بخلع فستانها الأزرق لتصعد عارية وشفافة نحو السماء.

مجنونة العليّة

أشعر كأني إحدى سيدات العليّة. لا، لا أشعر فحسب، بل أؤمن بصدق أني إحداهن. وبماذا نختلف عن نسختنا الأصل على أية حال؟ كلنا مجنونات العليّة، بفارق أن العلية تتجول بنا أينما سرنا.

أنا هي، أنا المُختَزلة في هذه الصورة المجيدة، صورة مجنونة العلّية.

لو وقعت عينا ديدار على هذه الأوراق لجن جنونه، أكاد أرى ردة فعله كما لو أنها صادرة عني شخصيًا. أتقمّص ديدار على الدوام، أتقمّصه كأنه أنايَ الثانية. ولِمَ قد يُجن؟ أولًا لأنه لا يؤمن بمقدرتي على سرد ما أقوله كما يجب، وربما أوحيت له مرارًا بذلك من خلال بتري لمعظم حواراتنا كأني عاجزة عن الكلام. ومن ثم فإنه لن يأخذ الكلام المُدوّن هنا بجدية أبدًا، بل ستلدغهُ خيبة أملٍ كبيرة، إذ أنه سيعتقد أني أفرغت على هذه الأوراق كل تلك الأوهام والأكاذيب التي حاول هو بجهدٍ وحكمةٍ تجاوزها أو إنكارها. سيكون ثقيلًا عليه تحمّل فكرة أني أصرُّ على أوهامي رغم حِكمته في إشفائي. أعرف كم ستكون ردّةُ فعله أبوية، سيكون أبًا شقيًّا.

لا أعتقد أنه سيكون عنيفًا، بل خائبًا بالأحرى، ذلك أنه لا يعترف حتى بوجود مثل هذه الآلام، أو لنقل لا يؤمن بوجودها. كيف ستقر بحدوث شيءٍ أنت تنكر وجوده أساسًا؟ خاصة أن كل ما كتبته إلى الآن

هو نبشٌ لدواخلي لا يخضع لأية حاجة حقيقية من الحاجيات الإنسانية التي يعترف بها ديدار.

أنا المريضة بمرض الرفاهية.

داخل أجسادهن أو داخل بيوتهن

كان ديدار البارحة مشرق التفكير بلا سبب واضح، وحين يكون مشرقًا وهادئًا يمكنه تحمّل الكثير من الجدال والخصام قبل أن يذبل أو يستسلم. أعني أن صبره لا ينفد بسرعة في مثل هذه الحالات بل يبدو كأنه يتدرب كل مرة على تعلم الصبر وهذا شيء أحسده عليه بشدة. اغتنمت فرصة إشراقته وقررت إخباره عن المرأة الشبح. لم أفكر في الأمر مسبقًا لكن يبدو أن حالة صفائه الذهنية حفّزتني.

- تعرف أني لست على ما يرام. لكن هناك شيئًا آخر أود إخبارك عنه.
- كلي آذان.
- ترادوني أفكار مزعجة منذ فترة. لا أعرف كيف أصفها لك.
- إنها نتيجة التعب، ربما، نامي جيدًّا.
- ألا تملك وصفة أخرى غير النوم؟
- بلى، حاولي ألا تفكري في شيء. وابتسم بمرح.
- وهل يفكر أحدنا بإرادته أم مرغمًا؟ سألته.
- يجب دفع بعض الأفكار، ليست كلها تستحق الوقوف عندها.

اعتدل في جلسته وأضاف بثقة:

- تفكر النساء بدواخلهن كثيرًا، هل أنا مخطئ؟

- هذا أعجب ما سمعت. كيف قررت ذلك؟

- لم أقرر، بل وجدتهن كذلك على الدوام. إنهن يتحدثن عن داخل أجسادهن أو داخل بيوتهن. لا يستطعن أن يفكرن في العالم بطريقة أكثر حرية.

أردت أن أجيبه، لكن لساني ثقُل وتحرك ألم كالبرق في جبهتي. لم يضف ديدار شيئًا لكنه عرف أني لم أعد على ما يرام أكثر من السابق.

رغم أني لست متوازنة النفس منذ فترة إلا أني أستطيع تحليل الأمور كما كنت دائمًا. لقد عجزت عن قول شيء لديدار أثناء حديثنا، بل إن كلامه ولّد فيّ حاجة ملحّة إلى العزلة وترتيب أفكاري. لذا لم أترك لوجهي المجال ليعبر عن أساه بصورة واضحة ولجأت إلى غرفة نومنا حيث أمسكت بالأوراق وبدأت الكتابة بحزم.

لا يمكنني إنكار أن فكرة ديدار عن الدواخل أذهلتني، فهو لا يهتم عادة بهذا العالم، بل ينكره على الدوام، وإن أقر بفكرته هذه فهذا ربما يشير إلى أنه يعرف ما بي لكنه يفضل إنكاره، ومن يدري، فربما يعتبر إنكاره طريقة لمساعدتي. لا يمكنني التحقق من الأمر على كل حال، ولا يمكنني أن أخفي سعادتي في تفكيره الواضح رغم أن ما قاله آلمني بشدة. فقد اعتقدت أنه لا يفكر على الأقل بتلك الطريقة السطحية، فرغم كل شكواي منه ومن عدم تفهمه لحالتي إلا أني أعرفه كشخصٍ يأخذ بالأسباب على الدوام. كيف لم يفكر إذن؟ كانت المعادلة ستختلفُ كلّيًا فيما لو أنه بدلًا من أخذ الحالة هذه كبديهة قام بالنظر والتنقيب خلفها؛ إذ ليس ثمة من سببٍ بلا مسبِّب، ليس ثمة حال دون مراحل ولّادة لهذه الحال. فلو نظرنا إلى الأمر من منظار آخر، آخر تمامًا، وأنا أعني ما أقول، فسيتضح كم النساء مُحاصرات في رقعة ضيقة إلى هذه

الدرجة التي تدفعهن إلى شطر حياتهن في نفقين اثنين لا ثالث لهما: داخل أجسادهن أو داخل بيوتهن. إنهما نفقان معتمان لا يؤديان إلى أيّ مكانٍ بالضرورة، وخاصةً الأماكن التي يختم عليها العالم المتناسق ختم الصلاحية والقبول.

أتذكر كل الأحاديث النسائية التي سمعتها منذ طفولتي إلى اليوم، من أمي وجاراتها وقريباتنا، وصديقاتي وزميلاتي وغيرهن، كانت معظمها إما شكاوى من آلام أجسادهن أو الآلام الناجمة من نمط حياتهن داخل بيوتهن. لم تأتِ النساء اللواتي أعرفهن بأحاديثٍ عن أشياء العالم، بل التفتن دائمًا نحو الداخل وهذا بديهيّ إن تذكّرنا أن النساء عشن غالبًا كمحتجزاتٍ داخل بيوتهن مع تغيير التسميات والمبررات على الدوام كدواعٍ الحشمة والحب والخصوصية وحرمة البيوت، بينما كان الخارج مرهوناً للرجال. فإن اضطروا للتواصل مع أهل بيتهم كانوا يمرون مروراً عابراً، لقول كلمة، لطلب سؤال أو إبداء ملاحظة. كان الرجال في الغالب ضيوفًا على الداخل. ضيوفًا يجلسون القرفصاء أحيانًا إن هم مروا بالكائنات الداخلية ليعطوهن الانطباع أن هذا العالم الداخلي الضيق لا يمكنه ضمّهم بأي شكل من الأشكال.

أجساد النساء التي كانت ملاعب أسرية كانت تئنّ من حمولاتٍ كثيرة، بعضها ألم نابعٌ من حالتهن كبنات، وأمهات، وزوجات، و... وبعضها الآخر ناجمٌ عن عدم اتّساقهن التام مع هذا القالب الضيق الذي أجبرن على صهر أنفسهن فيه. لم يعلمن أن ما لا يسير على ما يرام ليس أجسادهن، ليس وجودهن، بل القوالب التي صُهرن فيها.

إضافةً إلى أجسادهن، كانت لهنّ عيونٌ كبيرةٌ وواسعةٌ مركّزة على بيوتهن. كان العالم كله مختصرًا إلى عوالم صغيرةٍ تمثل بيوتهن، هنّ المُحاربات فيها وهنّ صانعات السلام. في بيوت أهليهن أُعطينَ غالبًا الشعور أنهن راحلات، لا مستقرات. وقد فعل الجميع هذا، حتى عن حب. كأن البديهة هي المغادرة، لا الاستقرار والبقاء. مَن لا يُعطى شعور البقاء فسيضطر لأن يحمل بيته معه. وما هي البيوت التي نحملها معنا لو حُرمنا لذّة الاستقرار؟ أجسادنا وبيوتنا التي تُقدَّم لنا.

كنتُ قد تساءلت في بداية تعرفي على ديدار عن نمط الحياة الحر والواضح، وقد بدا لي لغزًا استطاعتهم العيش بهذا الشكل الحقيقي، لكن لم يكن ثمة سحر. لا تتحكم بالأمر قِوى سحريةٌ بقدر ما تتحكم به وقائع حياة المرأة والرجل. مَن لا يتفاعل مع مكونات العالم وأشيائه لا يمكنه أن يُفكّر خارجًا، لا يمكنه إلا أن يرتدَّ إلى عالمٍ آخر، إلى عالم الداخل.

أفترضُ أن عالم الداخل هو استعاضة عن فقداننا للعالم الخارجي. القاعدة تنصّ على أن نعيش في الخارج وللخارج، أن نفكر ونحن نسير، أن نتأمل ونحن نتحرك، أن نبني حياتنا ونحن نتفاعل مع أشيائها ببساطة، مع الحجر والعشب والخشب والحديد، مع الأرصفة والأبنية والناس المختلفين. أما الاستثناء فهو أن نضطر لاستعاضة ما حُرِمنا منه في الخارج بالعالم الداخلي، عالم الجدران المغلقة والأفكار والخيالات والهُلام الممتد. ولذا يُسجن المذنبون. لو لم يكن الداخل حرمانًا لما عُوقب المذنبون والمجانين والمعتوهون والمشوهون به. كل ما نود دفعه إلى الخلف نحتجزه ونغلق عليه، وهكذا دُفعت النساء

إلى الخلف على الدوام. احتُجزن بدوافع كثيرة في الداخل، ثم وصمن بالضيق والمحدودية.

لا يعني هذا أن الرجال لا يعيشون أبدًا عالم الخيالات والأوهام العرجاء لكنهم في الحالة هذه يُقذفون أيضًا من العالم الموسوم بالمتوازن والمتناسق، ينتمون عندها لفئة المذنبين. وقد سمعت مرارًا اتهامًا لهؤلاء الرجال بالضعف والهشاشة كالنساء.

ترتيبات العالم أسهل مما نعتقد: نحتجزك، نُغلق عليك ونوسمك من ثم بالضعف والهشاشة، بل نجعلك تهمة إن حلا لنا ذلك.

نحن نعيش في المحدودية وتتغذّى هي علينا. نحن، مَن نعيش داخل بيوتنا، لا يمكننا ببساطة التفكير خارجها. كل عزلة قيد؛ قيدٌ للعالم الحقيقي وانفلات في عوالم أخرى مجانية وفسيحة فُسحة مرعبة. تصبح حياة المرأة ما يجري داخلها، داخل جسدها، داخل رأسها، ذاك العالم الضيق الفسيح.

هذا ما تُرك لها. هذا ما تُرك لي.

هذا ما تُرِكَ لهن، هذا ما تُرِكَ لنا. إن خياراتنا محدودةٌ وضيقةٌ أكثر ممّا نعتقد.

مم وزين

فتحت عيني هذا الصباح فرأيت شيئًا معلقًا في السقف. حاولت التأكد، لمست عينيّ وفركتهما، بقي الشيء في مكانه، أبيضُ حليبي اللون، بلا شكلٍ محدد، لا مخيف ولا مطمئن. حاولت التقاطه بيدي، لمسته فسقط عليّ كجسدٍ ثقيل مع أنه بدا خفيفًا وهو معلقٌ في السقف. بعد سقوطه لم يعد حليبيًا ولا بلا شكل، بل اتخذ شكل جسدٍ حقيقي، اللحم الثقيل، الشعر في كل مكان، والوجه، آه كم بدا قريبًا ومرحًا. لم يقل شيئًا ولم أقل شيئًا، بدا كأنه هنا لا لغاية، بل من أجل ذاته، بأمر الجسد. انعجن الجسدان وبقيت أنا بعيدةً إذ شعرتُ أن ما يحدث هو شأن جسدين، لا عقلين، لا كائنين.

حين فتحت عيني للمرة الثانية أدركت أن المرة الأولى كانت حلمًا، والمؤثر أن ملمس الجسد كان هنا، حاضرًا بقوة لدرجة أني شعرت برهبة أسميتها بيني وبين نفسي «رهبة جسدية». بقيتُ مستلقية على تلك الحال لمدة ساعة كاملة، لا أفعل شيئًا ولا أحرك ساكنًا، كنتُ محاصرة برهبة الجسد، وللمرة الأولى في حياتي قررت في نفسي أني يجب أن أختفي قليلًا وأترك المجال للجسد ليعيش. أدركت أن حضوري مربكٌ ومشوشٌ لحضور الجسد.

على أثر ذلك الحلم غصتُ في ذكرى قديمة، تعود إلى الأيام الأولى لارتباطنا، ديدار وأنا، حين كنا نقضي معظم أوقاتنا في الكلام. كنا نتسلق جبلًا معًا وتحدثنا عن حب مم وزين[1]. قال:

- للحب جسدٌ هو جسدنا. الحب نظرة تخترق الجسد مثلما تخترق الروح تمامًا.

- وماذا بشأن الحب العذري؟

- ربما لم يكُ عذريًا يومًا. أيمكن إنكار قوة السلطة على الجسد في كل مكانٍ وزمان؟ ربما كان تعبير الحب العذري غطاءً مُتفقًا عليه. وأضاف:

- لا يمكنني أن أصدق أن مم وزين هاما ببعضهما دون أن يغرف أحدهما من جسد الآخر كما من روحه. لا حب يصل إلى الذروة دون المرور بالجسد.

- أوافقك، علاقتنا مع أنفسنا ومع الآخرين لا تكتمل بدون المرور بالجسد. علاقة الأم بطفلها علاقة جسدية، كذلك العشاق، والمرضى، والأزواج.

توقفنا على سفح الجبل، وفتحت قلبي للسماء التي بدت أقرب إلينا من الأرض. كنت مُنتشيةً بسحبِ اعترافٍ منه بأهميتي كجسدٍ وروح.

---

1 «مم و زين» قصة حب كلاسيكية من القرن الرابع عشر موطنها جزيرة بوتان الكردية، وهي قصة حب جمعت الشاب ممي آلان والأميرة زين شقيقة حاكم بوتان. صاغ هذه الملحمة الشعرية عام 1692 أمير شعراء الكرد أحمد الخاني الذي برع في الشعر والفقه والتصوف والفلسفة وعاش في مدينة هكاري في كردستان الشمالية في الفترة بين 1651 و 1707. تتكون الملحمة من 2661 بيت شعري تضم فلسفة الخاني في الحياة والحب إضافة إلى الدعوة لليقظة القومية الكردية في مواجهة الصراع الصفوي العثماني. لا يزال قبر مم وزين موجوداً إلى الآن في جزيرة بوتان في كردستان الشمالية.

تركني تعالق الجسدين وذكرى حديثنا على الجبل في رضا تام طوال ذلك اليوم. وبقيت راضيةً وسعيدةً حتى عندما لمحتها تدخل خلفي إلى غرفة المعيشة. كنت قد أعددتُ كأسًا من الشاي الأسود المُطعّم بالقرفة وقررت شربه بهناء بعد أن نامت ماف.

قالت بلا مقدمات:

- أتعتقدين أنك تقدمت خطوة؟

- عمّ تتكلمين؟

- عن قرارك في أن تختفي لتتركي المجال للجسد ليعيش.

لم أشأ الرد عليها، واستمتعتُ بمقاومتي لها، فقد بدت المقاومة ممكنة. من جهتها لم تلح، كانت قد أخفضت رأسها وبدأت بكرّ بكرة الخيوط وإعادة لفّها من جديد كما في كل مرة. كانت أصابعها الطويلة تتحرك بنشاط فيما باقي جسدها ثابتٌ في مكانه، بل بدا حتى أنه حقيقي، حقيقيٌ أكثر من جسدي أنا.

تذكرت أن عليّ الدفاع عن نفسي ضد قراءتها لأفكاري، فأجبت بحذر:

- لم أحظَ كفايةً بفهم جسدي، ربما كان الأمر مشابهًا بالنسبة لغيري. لا يجب عليك التوقف عند هذا، إنه أمرٌ بسيطٌ خَطَرَ لي وانتهى في وقته.

- لم ينتهِ يا صغيرتي. شعرت بالاشمئزاز من مناداتي بـ «يا صغيرتي»، ورغبت بقوة في صفع الفم الذي نطق به، إلا أنه لم يكن بإمكاني رؤيتها لصفعها. أكملتْ:

- لم ينتهِ، والهروب لا ينفع. لقد وضعتِ طفلة منذ فترة، صحيح؟ لقد مررت بتجربةٍ جسديةٍ عظيمةٍ دون أن تراعي ذلك. أجسادنا تحيا

أكثر منا، وأكثر مما نظن. يمر جسدنا بمحطاتٍ متعددة، بل إننا نمتلك أجساداً على قدر تجاربنا، لكننا ننظر إليه بسطحية على أنه جسدنا وكفى.

بدا الكلام بعيدًا ومعقدًا، ولهذا بالضبط شعرت براحة كبيرة، فقد بدت كأنها تحاول تثقيفي، تحاول جرّي بواسطة المنطق والعقل، وهذا في حد ذاته دليلٌ على تغييرها لاستراتيجيتها، أي دليل ضعفها. يمكنني سماع ما تقوله دون أن ينتابني الخوف. أكملتْ:

- لم يكن الإنجاب عمليةً آلية، فبالجسد وعلى حساب الجسد ومن خلاله وضعتِ كائنًا جديدًا في العالم. وأنت التي عشت في إنكارٍ وخوفٍ على جسدك أتعتقدين أنك ستتصالحين معه بين يوم وآخر؟

بدا لي كلامها في الصميم، لكني آثرت عدم إظهار ذلك، فقلت:

- لم أشتكِ من شيءٍ يومًا. جسدي ملكي وأنا أحسنُ التصرف معه.

- مخطئة. جسدك أكثرُ بديهيةً من أن يكون ملكك. في المجتمع هو رمز، في الإنجاب هو خزّانٌ لكل ثوابت الأمومة، في الحب هو شريك اللذة وصانعها، في الألم هو المعني الحقيقي والفعلي، في الموت هو غيابكِ كاملًا. وهذه الاختلافات والمحطات يمر بها جسدك ويُعرِّضك لها سواء رغبت في ذلك أم لا، فهو السلطان. وماذا تملكين أنت حقيقةً في كل هذه التحولات سوى عيشها وتقبّلها؟

لم أنكر ذلك، أعرف أن العلاقة مع الجسد...

وقبل أن أُكمل فكرتي قالت كأنها تسرق من فمي ما يجب قوله:

- إن العلاقة مع الجسد ليست ولا يجب أن تكون مرحليةً أو طارئةً أو متعلقةً بأدوارٍ أو ناجمةً عن كبتٍ ما أو متحركةً ضد كبت، بل هي علاقةٌ خام ومستمرةٌ وتواصليةٌ تمر بمراحل عديدةٍ إلى أن تنتهي بفنائه.

- ربما. قلتُ على سبيل القول فحسب.

- يبدو أننا نتفاهم جيدًا. إن عرفنا أن الجسد هو أدواره، يمكننا أن نسحب منه الأدوار إذن. فكري في الأمر.

- ولمَ عليّ التفكير فيه؟

- لا عليك، عليك فقط أن تُدركي أن العودة إلى بدائية الجسد ممكنة.

- ولمَ عليّ إعادته إلى حالة بدائية؟

- ستكونين أقوى. كل خوفٍ هو خوفٌ على الجسد. كل مخاوفنا تتمحور حوله لأن فناءه يعني فناءنا. إن أعدتِه إلى حالته البدائية فلن تخافي بعد ذلك، وحينها سيكون بإمكانك أن تفعلي به ما تشائين. بالخوف حبستِهِ لسنوات، وبإطلاقه ستُنهين الخوف تمامًا.

- وماذا أفعل بجسدٍ لا يخاف؟ أقصد ماذا أفعل بجسدٍ لا أخاف عليه؟

- ترمينه من النافذة مثلًا. لن تشعري بأي شيءٍ وأنت تلقينه حين تعطينه حقه في أن يكون بدائيًا وتسحبين منه كل أدواره التي عاش بها.

كنت أعرف أن هذا ما تريد التوصل إليه، وإلا فلِمَ كل هذه المحاضرة عن الجسد؟ لكني كنت قويةً كفايةً لأُنهي كأس الشاي وأخرج بهدوءٍ إلى الشرفة. لم أكن فزعةً كما في كل المرات السابقة. فقد بدا أن طريقتها العقلانية في سحب البساط من تحت قدمي مكشوفة. لم تخدعني تمامًا بكلماتها، ربما لأسلوبها الخطابي دورٌ في ذلك.

عندما أصمت وأُبعدها فعليًا عن تفكيري تتوقف هي أيضًا، لا يمكنها أن تلح.

المرآة

أقتصد في حركتي يومًا بعد يوم، فقد صرتُ كسولة في كل شيء ما عدا التفكير. في الفترة الأخيرة بتُّ أعجزُ عن رفع يدي أو تحضير الطعام، وبالمقابل فعقلي بركانٌ مشتعل، لا يهدأ. بدأت كذلك حاجتي للآخرين تتضاءل، فلم يعُد حُضور ديدار في البيت يفرّج من كربي. على العكس، أصبح وجوده حجر عثرة أمام أفكاري، إذ اعتقدت على الدوام أني شفّافةٌ كبطن فراشةٍ غير مكتملة، وأن كل ما يجول داخلي مرئيٌّ للآخرين ومكشوف وقد تأزم الوضع مؤخرًا لأن التفكير بدأ يأخذ المساحة الأكبر من وجودي. لم يعد يُريحني كذلك أن نجلس بذات الغرفة فمن يدري ما سأفعله! حتى أنا لا أتكهن بأفعالي، أضف إلى ذلك أني سأكون مضطرة للتفكير بما سأفعله بنفسي، وبما سيراه هو مني بينما أفعله. وعلى الرغم من رغبتي في أن أعود مُنضبطة حتى وإن كلّفني ذلك مراقبةً تامةً من الآخرين، إلا أن لديّ في ذات الوقت رغبةً مضادة في أن أكون وحدي. هذه الرغبة الأخيرة في تزايدٍ مستمرٍ لدرجة أن أي شيء في حضور الآخرين يستفزني.

تعدّى الأمر في نفوري من الآخرين إلى كرهي للمرآة أيضًا، فمن يضمن عدم وجود أناس خلف المرايا ينظرون إليّ ويحكمون على ما أفعل. ليس الأمر جنونًا، أعرف أني لم أجنّ بعد وأني لا أقوم بأشياء بغير وعيٍ مني، لكن أردت أخذ الحيطة وترك هامشٍ للريبة. فما دام لا

أحد يرى، وما دمتُ أنا نفسي غير متيقّنة مما أفعله حين أكون بمفردي، فلا ضمانات إذن.

الحقيقة أن خوفي من المرآة لم يأتِ من عبث. هناك لحظتان مميزتان لهذا الخوف. فمنذ أيام كنت واقفة أتأمل جسدي، أقيس تغيراته وأتأمل إمكانيات عودته لسابق عهده وفجأة أدركت أن المرآة ليست أكثر من نافذة، بل إنها نافذة مخادعة إذ أنها تريني نفسي ضعفين. لم يطل الأمر في تفكّري في هذا حتى ظهرت السيدة من جديد. رأيتها تنبعث من المرآة ولكنها في الوقت ذاته تولد خلف ظهري وكانت هذه اللحظة الثانية لتأكيد شكوكي حول المرآة. لم أخف أو أتوتر من وجود السيدة رغم أني عرفت أن ثمة حوارًا سنجريه في التو. وأُرجع سبب عدم خوفي منها حتى بعد أن بدأت حديثها إلى أسلوبها المغاير هذه المرة، فقد كانت جالسة، كما تهيّأ لي، على حافة السرير، ولم تكن منشغلةً بشيءٍ كما هي عادتها، بل كانت تركز تمامًا عليّ، وتتكلم بصوت وديع لم أعهده منها. أما السبب الآخر لعدم خوفي منها فيعود إلى أن المرآة قامت هي اليوم بدور المُفزع لي. قالت السيدة:

- كل امرأة تخوض معركةً لصالح جسدها تفوز.

- ما معنى ذلك؟ كيف تفوز؟

- تعود ناضجةً إلى الحياة، تكون قد قفزت ببراعة فوق هوة انفصالها عن جسدها، تمسح تاريخ الشِّقاق السابق بينها وبينه وتولدُ من جديد إنسانًا كاملًا.

- اسمحي لي أن أقول إني لا أفهمك تمامًا، ومؤكد أنه لا يعجبك الحديث إلى شخصٍ لا يفهمك، صحيح؟

- ليس تمامًا، أعرف أنك ستفكرين بكل ما أقوله وأنك ذكية كفاية لتفهمي هذه البديهيات.

ودون أن تنتظر ردة فعلٍ مني على كلامها استأنفت حديثها قائلة:

- أعتقد أنك لم تقفزي بعد من فوق الهوة التي تفصلك عن جسدك. ما زلتِ، وما زال جسدك حبيسًا.

تركتها تتكلّم، شعرت أن عندها رغبة في الكلام ليس إلا. أكملتْ بحزم:

- لكني أعلم أنك ستفعلينها. ستقفزين.

وتّرتني الكلمة من جديد، إنها تدرك ما أفكر فيه أكثر مما أتخيّل.

سرتُ نحو الباب وأردت الابتعاد عنها والخروج من الغرفة حين قالت:

- قصدتُ بالقفز، القفز فوق هوة انفصالك عن جسدك.

ارتأيت ألا أتوقف، فاستدرت مجددًا نحو الباب، لكنها أضافت على الفور كأنها عرفت أن هذه الطمأنة الأخيرة لن تُبقيني.

- عليك أن تخوضي المعركة إذا لم ترغبي في القفز من النافذة. لا تتخذي الحكمة من تلك النساء اللواتي يهجرن أجسادهن ويعتقدن أنهن تجاوزن الهوة بنجاح، هن لم يقفزن أصلًا، لم يخضن المعركة حتى.

خرجت مسرعة فسمعتها تصيح من خلف أذني:

- لا تستنفذي كل معاركك قبل أن تخوضيها. خوضي أو اقفزي.

زمن مُخفّف بالوهم

غالبًا ما أتمكن بسهولة من التركيز على النقطة التي أفكر بها، بل ربما لا أفعل شيئًا، خاصةً في هذه الآونة الأخيرة، سوى التركيز على شيءٍ واحد. إلا أني اليوم ضائعةٌ إلى حدٍّ بعيد. حاولت التفكير في أي شيء، ليس بالضرورة شيئًا يقدم لي بعضًا من العزاء، بل أي شيء يملأ الفجوات الموحِشة لذاتي. كانت الأفكار تتزاحم في عقلي، ولأقلْ تتقافز، ولم تكن أفكارًا سويةً ولا مستقرةً بطبيعة الحال. حاولت التقاط بعضها، أيًّا كانت، لكنها كانت تختفي كرمادٍ متجمع في رأس سيجارة قبل أن أتمكن من الإمساك بها. أنا لا أفكر، وتزعجنِي عدم قدرتي هذه على التفكير. كل دائرة تغلق عليّ دوائر أخرى. لا مخرج.

وجدتُ نفسي مندفعةً نحو الغرفة المهملة من منزلي، غرفة بخزانةٍ واحدةٍ وبساطٍ صغير على الأرضية. أخرجت ألبوم صور من الخزانة عساي أنسى الوقت المتقطّع للحاضر إلى حين عودة ديدار. شعرت لأول مرةٍ أن الألبوم ثقيلٌ أكثر من اللازم، وأنه على عكس ما اعتقدت، لم أكن أخبئ فيه سوى رسوماتٍ ميتة لا تدل على أي شيءٍ ولا تشير لأي شخص، حتى إني تساءلت: هل هذه التي في الصور هي أنا حقًّا؟ هل هؤلاء هم حقًّا أصدقائي، عائلتي، زملائي في العمل؟ بدا ألبوم الصور بالأحرى كدفتر هواتف قديم لمسؤولٍ أو موظفٍ حكومي، كل الأشخاص فيه أشخاصٌ حقيقيون لكنهم لا يخصّونه في شيء، ليسوا هنا من أجله هو بالذات.

لم أتنقل على خط الزمن من خلال تصفّحي للصور كما يحدث عادةً حين نفتح ألبومًا؛ إذ لم يكن المخبّأ في طيات هذا الألبوم سوى زمن خفيف، مزيف ومعدوم الثقة بنفسه، زمن خجولٍ يحاول استعادة رصانته التي كانت له في السابق. كنتُ في بعض هذه الصور مبتسمةً وسعيدةً وفي بعضها الآخر بدوت بهيئةٍ جديةٍ بليدة. وفي كلها تقريبًا انتابني غثيان من مقدرتي على الصمود كل هذا الزمن، كأنه كان عليّ في هذه اللحظة بالذات أن أُعيدَ حياتي التي عشتها من جديد.

في يدي الآن صورةٌ متآكلة الأطراف، كانت مخبّأة تحت صورٍ أخرى في الألبوم. فتاةٌ صغيرة تنظر بعينٍ واحدةٍ للكاميرا وتُخفي العين الأخرى بيدها. أرى وجهها وأتعرّف عليه. أحس على الفور بشيءٍ ما ينخلع من مكانه، من هنا، من قلبي. أعرف المكان حيث أُخذت الصورة كأنه معروضٌ الآن أمامي على شاشة سينما كبيرة. أعرف أني كنت يومًا هناك، طفلة صغير تتسلّى بكنسِ مخلفات الخراف والماعز من غُرفها المعتمة. قبّل جدي رأسي بحنان حين أخبرته جدتي أني قمت بهذا العمل ووفرت عليها بعض الجهد وكان هذا مديحًا نادرًا تلقّيته وبقيت أتغذّى عليه لسنوات. التقط عمي اليافع آنذاك هذه الصورة لي، وأتذكر أنه قال: «هذه صورةٌ لن يرى أحد لها مثيلًا حتى في أبهى معارض العالم» وضحك كثيرًا فلم أفهم سبب ضحكته في حينها. أتذكر المكان الذي لم يعد كما كان. أذكر أني استلقيت على القش المكدس ونمت فوقه لياليَ لا حصر لها، في ليالي الصيف حيث قضيت معظم أوقاتي في دار جدي. أتذكّر أني رميت حجارةً صغيرةً في جرن القمح لأني أردت سماع أسنان الكبار تنكسر وهم يمضغون طعامهم، وكسرت ساق دجاجةٍ رميتها بكأسٍ حديدية ثقيلة، ومشيت خلف الخراف

لأرعبها. أتذكر شربي للّبن المتجمد في شق الحائط الطيني، وبقائي فترات الظهيرة كلها في الخارج أسكب الماء على نفسي وأتمدد في الحرارة. أتذكر الآن كل الأغنيات التي حفظتها وأتذكر أمنيتي في أن أمتلك واحدة من تلك المريلات ذات الجيوب التي يعلقونها على الجدران لأضع فيها ملاعقي وألعابي التي أحب.

أتذكر كل ذلك كأنه لا يخصّني. لا أتذكر ذلك كطفولةٍ عشتها بنفسي، بل كمشاهد شاهدتها يومًا ما على شاشة التلفاز. تلفاز؟ لا.. ولا هذا حتى، لأني أحس بها تلك الصغيرة، أحسُّ بها في حاضرها وتتجنبني هي في حاضري. هناك شيءٌ ما تمّ اقتطاعه، لا أعرف متى اقتُطِع ولا كيف، لكن أعرف أن أحدًا تَرَكَ الطفلة في مكانها هناك وبعثَ هنا واحدةً أخرى لا تعرف حتى كيف تتحسر أو تتمنى عودة ما كان. أنا لا أتذكر، لا أستعمل ذاكرتي، أنا ألتقط صورًا مرميةً في جوف الذاكرة بمعية هذه الصورة المتآكلة بين يدي. كل محاولات ذاكرتي لا تُرجعني إلى تلك اللحظة، محاولاتي لا تُسعفني حتى على القول: أوه، كم كانت أيامًا جميلة!

ليس السيئ في الذكريات نسيانها بل عدم تمكننا من إلصاقها بجسدنا الحاضر، شعورنا أنها لن تنتمي لنا ولم تك يومًا. كل ما أستطيع فعله هو النظر بعين الغيرة لتلك الطفلة التي لا تعرفني بينما أعرفها وأحفظ تفاصيل حياتها البعيدة عن ظهر قلب، وأناديها كمن تنادي ابنتها، فلا تلتفت إليها. أعرف مستقبلها ولا تعرف مستقبل نفسها. أعرفها، أعرف كيف كانت تسير بتململ، تبحث عن الحصى والدعاسيق، تنظر إلى أمها التي تحادث الجارات. أعرفها حقًّا... أعرفها خاصةً عندما قالت لوالدتها: «ماذا سأفعل لو متِّ؟» أعرف كل تلك الأسئلة الفضولية

وعديمة النفع التي طرحتها بجديةٍ على الكبار فضحكوا منها أو طردوها بعيدًا. أعرف الطفلة جيدًا إلا أن النّهرَ قد أخذها إلى الطرف الآخر. أنلتقي؟ المشكلة أني أعرف أننا لن نلتقي، ولو تكوّر النهر على نفسه، ولو تراجعَ عن سيله ولو غيّرَ مجراه. المشكلة أني أعرف أنها النهر، أنها قطرات ذاك النهر معلّقة بالزمن، فمن يلمّ الزمن على نفسه؟ مَن يُعيده؟ ومن يجمع قطرات الماء المهدورة؟

صورٌ أخرى في الألبوم كانت لأناسٍ لم أتمكن حتى من التعرّف عليهم. فكرت أن ماف ستفتح يومًا ما ألبوم الصور هذا، ربما لتُري خطيبها أفرادًا من عائلتها، كان مهمًا لي في هذه اللحظة معرفة ما ستشعر به حيال هؤلاء الناس، خاصة أني سأكون عندها في عِداد المنسيات، والأكثر من هذا، في عِداد الأمهات الملعونات، أمٌ تركت طفلتها في شهورها الأولى وأقدمت على الموت برفاهية. سأبدو ربما أكثر قسوة من أمّ انفصلت عن زوجها لتتزوج بغيره، سأكون أشدُّ أنانية بألا أدع للطفلة أيّة فرصةٍ في التعرُّف عليّ. والأسوأ، إذا عرفت أني كنتُ منقادةً وأني فعلتُ ما فعلته لأن ثمة قوى أكبر مني كانت تتحكّم بي، عندها سيكون الشعور بالذنب على أشده لديها، ستكون البنت التي بمجيئها إلى العالم أجبرت والدتها الراضية، الممتلئة بالحياة سابقًا، على الرحيل المستعجل.

هل أترك لها خِطابًا إذن؟ أبرّر نفسي الدنيئة على الأقل؟ نفسي الهاربة الجبانة؟ ومنْ سيحمل لها الخطاب حتى تكبر؟ قبل أن أطيل التفكير في الخطاب دخلت المرأة عليّ. لم تدخل من الباب بالتأكيد، إنها تنبعثُ في كل مرةٍ خلفي. قالت بينما شعرتُ أنّها تتكلم مطأطئة الرأس:

- النفس لا تكون دنيئة حين تختار خيارًا كهذا.

أردت أن أوهمها أني بعيدةٌ عمّا تُفكر به، فأجبت:

- أيُّ خيارٍ تقصدين؟
- لن نلعب مثل هذه الألعاب. خيارك في الموت.
- أنا لا أود الموت، هل تحسبينني مجنونة؟

نفت بصوتٍ هادئٍ جدًّا، هدوءًا أوحت لي من خلاله إني مكشوفةٌ كدفترٍ مفتوحٍ أمامها، وألا حيلة لديّ لإخفاء شيءٍ بعد اليوم عنها.

طال الصمت بيننا بعد ذلك، حتى إني ما عدتُ أفكرُ في شيء. لكن إطالة الصمت لم تُرحني، فقد عرفت أنها ما تزال هنا. في قرارة نفسي كنت أود منها أن تقول ما عندها دفعةً واحدة، وفي ذات الوقت كنت أخشى من كلماتها أكثر من موتي. أما هي فلم تكن مترددةً ولا خائفةً ولا مستعجلة، بل كانت تعبث بخيوطها بهدوء، تلفها وتعيدها لحالتها السابقة من جديد. تجرّأتُ أخيرًا:

- لمَ يهمّك أمري؟ لمَ أنت هنا؟
- سأرحل إن أزعجك حضوري.

لم أكن متأكدةً من رغبتي في رحيلها ولا في حضورها، فلم أجب. لكنها استأنفت حديثها بقوةٍ كعادتها:

- يمكنك تفادي ترك أية ذكرى سيئة لديها.
- لدى مَنْ؟

رأيت أن عليّ كخطوةٍ احتياطيةٍ إنكار فهمي لما تقوله لي.

- لدى ابنتك، أتشردين لهذا الحد؟

صمتنا من جديد، بدت هادئةً كأنها كانت متأكدة من أني سأعود لمحادثتها. صبرت لبضع دقائق أخرى، لكني سألتها بعدها باندفاعٍ:

- كيف؟

- تأخذينها معك.

ما كان مني سوى الركض خارجةً باندفاع من الغرفة، وقد بدا لي أنّ ساقيّ تسيران بخطوتين اثنتين قبل جسدي وقبل رأسي بالتحديد. تركتها خلفي وأنا عاجزةٌ حتى عن البكاء. كنت متأكدةً أنها لن تلحق بي، أولًا لأني لم أسمع صوت حفيف ثوبها الطويل وخشخشته، وثانيًا لأني عرفت، من خلال العادة، أنها في مثل هذه الحالات تقطع حديثها ولا تلح أبدًا.

جلست لدقائق في الشرفة، حاولت استعادة أنفاسي، كان مجرد رؤية الخارج يُحدث فارقًا في نظرتي. كان العمال يعملون بتململٍ ولا تكف أصواتهم عن ملء المكان بين الفينة والأخرى كأنهم جوقة غناء كاملة. ها هي الساعة تشير إلى الواحدة ظهرًا، وقت الغداء. غداءهم.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

محاولة أولى

ترتجف أصابع يدي وأكاد أسمع صوت طرق العُظيمات وأنا أحاول الكتابة الآن. لقد تركت الطفلة لوحدها ساعتين كاملتين وهمتُ في الشارع.

عليّ أن أدون هذا، رغم أني أخاطر مخاطرة كبيرة. فقد كنت مجنونة بالفعل حين تركت باب البيت مفتوحًا وهرعت بثياب المنزل إلى الشارع. لكن اندفاعي كان تلقائيًا.

لا أعرف كيف تطور الأمر، لكني كنت أحاول أن أتحاشى المرأة منذ الصباح، وفزعت منها بشدة حين ضربت نفحة ريح نفسها خلف أذني. فزعي منها تضاعف في الآونة الأخيرة، فقد كانت تصرّ على تحويل أحاديثنا كلها صوب ماف، وأنا لا أود إقحام الطفلة فيما بيننا. هربت لأني شعرت بالحاجة إلى المساعدة، لا بد أن أطلب من أحد ما مساعدتي. لم أنتبه إلا وأنا في الشارع، أقف بذهول على أرض صلبة وفي داخلي إصرار غريب على الابتعاد. الابتعاد عن بيتي وعن الطفلة وعن السيدة على وجه الخصوص. وهكذا وجدت نفسي بعد مسير عشوائي أمام محل السيدة الأربعينية الذي يبعد مسافة خمسة حَوارٍ عن منزلي. لم تكن موجودة، كان هناك بعض الشبان في الداخل ميزت من بينهم أحد أبنائها. رحت أتأمل حبات الطماطم والبصل والبطاطا الطازجة، حركت قدمي على الأرض ورحت أضرب كتل التراب برأس حذائي.

للحظة شعرت بومضة من الماضي، ماضٍ أعرفه تمامًا. كان الأمر أشبه بالخروج من علبة زجاجية خانقة والعودة إليها. على أثر هذه الراحة بدت حبات البطاطا حباتًا عاديةً، استطعت شم رائحة التراب العالق بها وأمدتني الرائحة بنوع من الهدوء.

خرج الشاب، أقصد الصبي. يبدو في الرابعة عشرة من عمره، له شارب خفيف جدًّا وحبوب موردة وحمراء تملأ ذقنه ونقاط متفرقه من وجهه. قال بصوت خشن مضحك، عرفت أنه صوت جديد عليه كما هو جديد علي: «شو أوامرك؟»

أخبرته بحاجتي لبعض الخضار، ولم يكن بإمكاني إيضاح مطلبي أكثر وأعتقد أن الصبي فهم غرابة موقفي، لذا لم يسأل كثيرًا، أخذ كيسًا وبدأ يمد يده كل مرة إلى شيء وهو يسأل: «بطاطا؟»، «بصل؟» بينما أكتفي أنا بهز رأسي. أخذ الصبي الكيسان ووضع كل مرة واحدة على كفة الميزان، ثم مشى بتبلد نحوي وأعطانيها قائلًا: «هل تدفعين الآن أم أسجلها على الدفتر لحين حضور السيد ديدار؟»

أخبرته أن يكتب على الدفتر ومشيت مسرعة. بعد عدة خطوات فكرت ما سأقوله لديدار، هل أقول إني خرجت؟ ولم خرجت بلا مال؟ وإن كانت البنت تعرضت لمكروه في غيابي، كيف سأبرر تركها لوحدها؟ بدون تفكير عدت أدراجي، رميت كيسي الخضار أمام باب المحل، وأسرعت مبتعدة.

انعطفت من شارع إلى آخر، حاولت أن أهدئ من روعي وأسير بتوازن لكن كان ثمة شيء يلاحقني ويحثني على السرعة. بعض الأطفال يلعبون بكرة قدم ممزقة ويتصايحون. أحدهم ينادي بصوت أقرب للصراخ على

طفل آخر بدا كأنه يهرب منهم مسرعًا بأقدام عارية. لم يلتفت الأطفال ناحيتي وهو شيء لا يحدث غالبًا، ففضولهم غير المشبع للغرباء عن البلدة مخيف أحيانًا. أتذكر أني في أول فترة انتقالي إلى البلدة تعرضت لعدة مواقف سيئة من الصبيان في الشارع، من كلمات بذيئة وتهكمات، حتى أن بعضهم تبعني لكن نظرة واحدة مني أوقفتهم. كانوا صغارًا جدًّا على تحدي امرأة بالغة لكن ربما كانوا يحاولون تمثيل أدوار الكبار، هذه الأدوار التي سيتقنونها يومًا ما ليتحكموا بعدها بالشارع والخارج لوحدهم.

عدت إلى البيت وكانت الطفلة في سريرها، نائمة كأنها لم تستيقظ في غيابي. حملتها بين ذراعي نظرت في طرف عينها، كان البلل واضحًا، لقد بكت في غيابي وعادت للنوم. عليّ إرضاعها لكن يتوجب تهدئة نفسي أولًا، لقد أشبعتها من هذا الحليب الفاسد. وضعت الطفلة في غرفة المعيشة وتنقلت مستقيمة الظهر بين الغرف الخمسة... في صغري كانت أمي تحثني دائمًا على جعل ظهري مستقيمًا في حالات الخوف أو الفزع. لا أعرف إلى الآن ما العلاقة بين الخوف واستقامة الظهر، لكن بحكم العادة أفعل ذلك فأتنفس بسلاسة فأرتاح، أو هذا ما أعتقده.

جرى اليوم بعدها بشكل طبيعي، أرضعت الطفلة، تسلّت قليلًا باللعب بقدميها وبلعابها ثم عادت للنوم. نظرت إليها نظرة شفقة، ماذا جاءت تفعل هنا؟

وممَّ تأتي القيمة؟

الآن وأنا أفقد قواي أكثر، أشعر كأني طفلٌ مُقعد، متجمعٌ على نفسه في زاوية، متغوط في ثيابه، نحيف الجسم، شاحب المحيا، ذو نظرةٍ كسيرةٍ لا يرفعها لأحدٍ إلا وتنكسر النظرة من تلقاء نفسها. هذا ما يفعله الشعور بانعدام القيمة. وممَّ تأتي القيمة؟ لا أدري.

شعور القيمة شعورٌ خبيث. فسؤال قيمتك لا يخطر ببالك وأنت سائرٌ أو وأنت تتحرك وتنحشر في الحياة، ومتى ما جلست فإن الشعور يطغى بحيث إنك لا تتمكن من شدة إلحاحه حتى على النظر فيما حولك للبحث عن حلولٍ له. إن سؤال القيمة هو سؤالٌ لا يطرحهُ المرء على نفسه بقصد، بل يُخلق في ذاته وجسده كالمرض وعلى حين غرة. لكن فجائيته ليست سوى فجائية زائفة، فحين يظهر لك، أو حين تشخِّص نفسك كمريضٍ بانعدام القيمة، يكون قد انتهك وسمّم سلفًا الكثير من أحشائك الداخلية، تمامًا كالسرطان. لا أخطئ أعراضه، ليس لأني تعرّفت عليه أو أني عشت المرض سابقًا، بل لأنه طاغٍ وحاضرٌ بقوة. أعراضه هي برودة غير مُبرَّرة في الحواس، شعورٌ بسواعدٍ نصف مقطوعة متدلّية وثقيلة بوقاحة، زيغٌ في البصر بحيث أن ما لا تراه عادةً هو ما تراه وأنت تكابدُ الشعور بقلة القيمة أو انعدامها. في القلب سترى فجوةً سوداء حتى وإن كنت لا ترى قلبك بالعين. الفجوة السوداء هي الثقب السحري الذي يسحبك جزءًا تلو الآخر إلى داخله ببرودة وحزم،

بحيث إنك كمريضٍ بانعدام القيمة تفقد أعضاءك الواحد تلو الآخر، صدقني أنا واثقة مما أقول، يتمُّ سحبها نحو الثقب الأسود إلى أن تنتهي تمامًا.

في طفولتي، في الحارة الشعبية التي كنت أقطنها، كنت أرى على الدوام معوّقًا وربما نصف مجنون، ملقىً طوال النهار أمام بابٍ أرجواني اللون. كان شابًّا مكتملًا في نحو السادسة عشرة من عمره، بدا لي هذا من ظلّ الشارب الخفيف الذي يعكّر براءة وجهه ومن طول سيقانه. بطبيعة الحال لم يكن بالإمكان معرفة سنّه بطريقةٍ أخرى فلم يكن يتواصل مع أحد، كلماته التي سمعتها كانت عبارة عن طلاسم لغوية أو أصوات نادرة يؤديها بطريقةٍ أقرب إلى الصياح. كان نحيفًا بشكل مخيف، أصفر الوجه وشاحبًا على الدوام، ساعداه نحيلان وذليلان كدميتين محشوّتين بالتبن وساقاه إما مطويّتان تحت جسده المهتز فوقهما بإلحاح أو ممدودتان بجانبه كجثتين صغيرتين لا شأن له بهما. وفوق ذاك كان عقله، العقل الذي يتّفق الناس على وجوده بطريقةٍ أو أخرى، غائبًا. كانوا يرمونه هناك ما إن ينقشع الظلام ولا يعيدونه إلى الداخل إلا بعد أن تأوي الحارة بأطفالها وكلابها إلى البيوت، حينها كان يخرج اثنان من أفراد عائلته، بدوا لي على الدوام، وأنا أترقبهم مستلقية على سطح الدار، كأشباحٍ في الظلام. كانوا يحملونه بيدٍ واحدةٍ وبالأخرى يحملون أغراضه، وهيَ: بساط مربع صغير، لعبة أطفال محشوّة وطرية ومتّسخة على الدوام وقصعة لم أجد فيها يومًا شيئًا من الطعام.

ليس ثمة فارقٌ كبيرٌ بيننا، أنا مكتملة الإعاقة الآن، وقليلًا ما تشي مظاهرنا بذلك. ساعدايَ اللعينان يزدادان ثقلًا يومًا بعد يوم، قدماي لا ترضخان لإرادتي، صحيحٌ أني أمشي وأتحرك لكني أتحرك وفق

المسموح به. سجينة في بيتي لا لأني ممنوعةٌ من الخروج ولكن لأني سأحمل قفصي معي أينما ذهبت. هناك بالتأكيد فارقٌ واحد بيننا، هو أنه من حيث المظهر الخارجي ما زلت أنتمي إلى العالم، بينما كان ذلك اليافع يغرق يومًا إثر يوم في نهر الجنون الكبير.

لا، لا يحيا من لا تجربة له. نقيض الحياة ليس الموت، ونقيض الموت ليس الحياة.. الشيئان لا يتعارضان إلا بواسطة شي ملموسٍ جدًّا، حقيقيٍ جدًّا... التجربة. لا يحيا من لا تجربة له.

شعور القيمة يتفتّح كزهرة من خلال التجربة وحدها. وكيف يُجرب الحياة مَن تآلف مع القفص؟

انحدار

مضت الآن أربعة أشهر على ولادة ماف، إنها تحرّك يديها وقدميها وتحاول أن تتقلب على الجهة الأخرى. في الفترة الأخيرة لاحظت -لا أعرف كيف- أننا نبدو محاصرين. ديدار لا يقول لي ذلك ولكني أستطيع أن أعرف أن الطرق مقطوعةٌ لأن حالة الحصار تشيعُ اضطرابًا في الأجواء.

عشت تجربةً مريرةً مع الحصار في مكان إقامتنا السابق، إذ بقينا لشهورٍ عديدةٍ بلا طعام حتى بات الاقتتال من أجل كسرة خبزٍ أمرًا مُبررًا ومُحتمل الحدوث. كان ديدار قد فقد عمله في ذلك الوقت بينما كنت أتابع عملي في دار الأيتام دون توقف. وكنت أحيا الخوف ضعفين، خوفي الشخصي وخوفي على الأطفال. كان الخوف من استمرار الحال أكثر صعوبة وتوحشًا من عيشه.

أنتبه وأنا أفكر الآن في حصارنا الحالي إلى أن رجفتي ليست من تأثير الحاضر، بل هي خوفٌ قديم، وأني على عكس أي إنسانٍ سويّ أشتهي أن يكون حصارنا الحالي حقيقيًّا. لا بد أني أملك قلبًا قاسيًا لأتمنى أمنية كهذه. لكني أرى بوضوح أن الأمنية تكبر في داخلي، تكبر لدرجةٍ يغدو معها إنكاري لسفالتي غير ممكنٍ. حقيقةً، ثمة فرحةٌ صغيرةٌ تشبه قهقهةً نضِرةً ترتفع في زاويةٍ ما بين أضلعي. إني أنحدر.

الموت بحنان

بينما تدور الشاحنة الخضراء في عقلي، أعجز عن إرضاع الطفلة. كلما فكرت في الشاحنة الخضراء أكثر شعرت بحليبي ينقص ويجفُّ أكثر. يحدث صراعٌ بين رغبتي في إسكات جوعها وبين رغبتي في الكف عن تغذية هذه الحياة الوردية والبريئة براءة وحشية.

اتصل ديدار اليوم في الساعة الثالثة والنصف، أخبرني بقدومه الباكر وسألني إن كنت أحتاج إلى شيء. اضطربتُ لفكرة أنه سيعطلني عن رؤية الشاحنة هذا اليوم، وكانت العصبية بادية على وجهي عندما دخل. استدرت وذهبت إلى الشرفة. كانت مراقبة الشاحنة قد صارت هوسًا بالنسبة لي، أتأمل من خلالها نجاتي. لكن بحضور ديدار في غير موعد تواجده الدائم في البيت شعرتُ مجددًا أن العالم يضيقُ على أية رغبة صغيرة مني، حتى لو كانت الرغبة في أن أكون لوحدي. مددت يدي من فوق سياج الشرفة وأسندت رأسي إلى مرفقي. كان الضيق أكبر من أن أحيطهُ بمواساةٍ عابرة، كما كنت أفعل كل مرة. كان الكره يجتاحني بلا هوادة. كرهٌ كبيرٌ للعالم الذي لم يُسعفني على فهم نفسي أو فهمه في أية لحظة.

من خلفي كان ديدار يقوم بكل الأعمال التي كففتُ عن إنجازها بسهولة، أعني تحضير الطعام، رفع الأطباق وغسلها، تغيير أغطية السرير والوسائد، تحضير العشاء لي وله، إعداد الشاي في المساء.

لا بد إن عجزي عن القيام بأقل الحركات اليومية العفوية هو سببٌ مهمٌ في تراجع قابليتي للحياة. انتبه ديدار مؤخرًا إلى أني عاجزةٌ عن الحركة بعفوية تقريبًا، فلمّح إلى أن رعاية الطفلة وحدها ستكون مهمةً كافيةً لي وعليّ ألا أُتعب نفسي في أعمال المنزل الأخرى. كان هذه نبلًا كبيرًا منه، لكني كنت بحاجةٍ إلى شيء آخر الآن، إلى سحب اعترافٍ شفهيّ منه بأنّ آلامي آلامٌ حقيقية وبأني أحتاج إلى يدٍ تعينني على النهوض قبل أن تبتلعني الهاوية. كنتُ أنحدرُ كملكة تُتوّج وكنت واعية لتتويجي، أقصد لانحداري.

في الليل شعرت بالحجارة في جوفي، تتساقط الواحدة تلو الأخرى في شيء يُشبه قاع البئر، ويتعالى صوت الارتطام فينخر أذني بينما الليل ساكنٌ سكون القبور. لا أعرف لم ظننت أن عليّ التعرّف على السائق قبل أن أسلّم مصيري له. حتى من دون كلام، بدون تواصلٍ حقيقيّ، شعرت أنه قريب، ولا بد أنه شعر بذلك أيضًا، فقد كان يخصّني بالنظر في غفلةٍ عن الآخرين.

قريباً سأفعلها. الدرب آمنٌ والساعد الأسمر الخشن للسائق يتقطّر حنانًا. أحتاج إلى أن أموت بحنان.

في الحلم رأيت أني عدت طفلةً صغيرةً واقفةً وسط طريق متفرّع في أربع جهات، أسقط فجأة في حفرةٍ صغيرةٍ لم أرَها قبلًا، يسحبني ساعدٌ كث الشعر. حين أفقت تذكرت ساعده. إنه حقًّا ساعدٌ حانٍ، لا يجب أن أخشى شيئًا.

يا للعنف!

لأني عاجزة عن صياغة الكلمة المناسبة، أختار أن ألقي نفسي تحت عجلات شاحنة! لأني غير قادرة على قول ما أشعر به أختار أن تتحطم أضلعي! يا للعنف!

ما الأصعب في الحقيقة، الكلام أم الموت؟ لِمَ يبدو إفهام الآخر أعقدُ من السير إلى الموت على الأقدام؟

ما غايتي بالضبط؟ أن يفهم الآخر معاناتي أم أن أشفى من آلامي التي لم أعرف لها اسمًا؟ لَمْ أفكر في هذا من قبل.

حراسة بعيني ذئب

إنها ليلةٌ مقمرة، والذئاب تنشط. أقصد ذئاب رأسي وخرافها أيضًا. أحببت الذئاب على الدوام، إلا أني كلما دخلت في الحالة هذه أرى أمامي قطيع ذئابٍ من نوعٍ آخر. ينام ديدار منذ البارحة في المعمل. الطريق مسدودةٌ بسبب الاشتباكات. إنها الحرب. حربهم التي لا تنتهي، حرب الرجال، حرب الرؤوس الفارغة الكبيرة.

مع غروب الشمس بدأت الجنّيات تتراقص داخل الجدران. أشعر بالجدران تتألّم على غير عادتها، بينما ذئاب عقلي تتأهب للانقضاض. بكت الطفلة طوال فترة ما بعد الظهيرة، وعندما استسلمتْ متعبةً للنوم قبل قليل تولّد داخل عقلي ألف صوتٍ يسألني ضمان ألا تفيق بعد قليل. أريدها أن تنام طويلًا، أن تنام دائمًا، فمهمتي كحارسٍ تكون أكثر فاعلية في أثناء نومها. أود أن يكون تركيزي عاليًا لأحرسها. أود أن أحرسها بيقظة. لا أريد التفاعل معها، بل حراستها بعيني ذئب.

حين سقط الليل تكثّفت مخاوفي، نظرت إلى الطفلة بأعينٍ ممتلئةٍ بالشك بينما كانت تنام بعمق في سريرها، لم تكن نظرتي نظرة حنانٍ أو خوفٍ عليها، بل نظرة اغتراب: لِمَ أنا هنا؟ لمن هذه الصغيرة؟ ولِمَ كل هذا الثقل في رأسي؟ نظرت إلى ماف محاولةً أن أتلبّس ثوب الأم البسيط الممتلئ بالحب بدون تكلّف، من دون سؤال أو جواب، لكن كان ثمة فاصل، حائط بين ما أود وما أستطيع. ابتسمت، لكن ابتسامتي

كانت كئيبة لدرجةٍ مضحكة. كان هناك شيءٌ ما يهرب من بين يدي وأفكارٌ تتقافز كحيوانات بدائية داخل عقلي...

الساعة تدق الآن الثانية عشرة ليلًا، وجدتْ عيني لنفسها مكانًا تراقب فيه سير الحياة في جسد ماف، في مكانٍ ما قرب صدرها: حركة الحياة جيدة، التنفّس منتظم، ضربات القلب كخفق فراشةٍ حائرة.

لا أعرف متى سقطتُ في النوم، لكني أتذكر حلمي. كنت أسير في حقل قمح والحرارة مستفزة لدرجة تدفعك لقتل أحدهم وأنت مرتاح الضمير. كان عليّ السير باتجاهٍ أعرف أنه مخالفٌ للسير. كانت الطريق ترابيةً والغبار الذي يشبه بلونه لون الكاكاو المحلّى يملأ سطح حذائي. كانت الطريق تطول كلما سرت أكثر والغبار يرتفع حتى يملأ أنفي ومقلتي. فجأة عرفت أني بعيدة، وبكيت. استيقظت، كنتُ أتقطّر عرقًا، نزعت عني ثيابي وبكيت. كان البكاء حارًا إلى درجة أني أتممته رغم إدراكي أنه كان مجرد حلم. كانت الساعة تشير للخامسة، وتباشير النهار ظاهرة.

مجنون يصفع بكلتا يديه

مضت ستة أيام على غياب ديدار عن المنزل، لَمْ أنم خلال الأيام الأربعة الأخيرة سوى ساعات قليلة، كانت في معظمها مجرد غفواتٍ تسرقني قبل إشراقة الضوء بقليل.

لا بد أن المعمل مُحاصر.

فجأة يعود الخوف بتصميم أكبر. أستطيع أن أميز حِدّتهُ بسهولة. إني أعيش الخوف على الدوام لكنهُ يختلف من حينٍ لآخر، وأعرف الفوارق بين حالات خوفي بعد تجاوزي لكل مرحلة. فجائية الخوف هذه المرة تخيفني، يبدو كمجنون يُخرج رأسه فجأةً من الجدار ويصفعني بكلتا يديه.

شرعت بالنظر حولي فيما يمكنني عمله لتجنب الخوف. خرجت إلى الشرفة وشعرت أن رؤيتي ضبابيةٌ مع أننا في فصل الصيف ونور الشمس في الخارج أكثر إشراقة من أن تتحملها الأعين. فجأة تجلت أمام ناظري حقيقة مَن أكون أو من صرتها: منقادة ضئيلة، غاضبة غضبًا بلا شكل وهيئة، مستنزفة القوى والشعور، محصّنة غير قابلة للاختراق ومُعرّضة لكل ألوان الانتهاكات في الوقت ذاته، بليدة الحس وحسّاسة لأبعد حد، خجولة خجل القنفذ وضارية كذئبٍ محبوسٍ في قفص، منتهكة بين الرغبة في المضي ساعاتٍ في الحديث والإفصاح عن ذاتي وبين

أن أكون كتومة لدرجة أني قد أموت دون أن أجد في نفسي الرغبة لقول كلمة للذين أتركهم خلفي، مترددة، إيقاعية، متذبذبة، ممتلئة بالخزي والقلق والغضب. حدودي، التي يُفترض أن تكون حدود جسدي، تبتعد باستمرار، أنا هنا وهناك وفي كل مكان وعاجزة عن لملمة نفسي أو ضمها، بحيث أني لو مددت يدي لأضم ركبيّ إليّ لعجزت ببساطة.

قضيت الأيام الأربعة الأخيرة كأني أركب موجًا، أرتفع، أنخفض، أهتز وأغرق وقبل أن أموت بدقيقة أُنقَذ. لم أعرف متى كانت الصباحات تبدأ أو متى تنتهي الليالي. لم أنظر للساعة مرة واحدة لحماية نفسي من الإحساس بالزمن.

وكزوبعة وُلِد الإلحاح داخلي. يجب أن أنتهي اليوم.

عالم آخر

قبل نهاية اليوم السادس، وتحديدًا في الساعة الثانية ظهرًا، اتصل ديدار وبدا لي صوته كأنه قادمٌ من عالم آخر. لم يكن بإمكاني حتى سؤاله عن حاله. بدا مندهشًا لعدم سؤاليَ وإلحاحي على معرفة أخباره أو السؤال عن سلامته. مع أنه يعرف، أو على الأقل يتكهّن بالحالة التي يمكن أن أكون قد وصلت إليها، إلا أنه يتوقع على الرغم من ذلك أن أحادثه كما يتحدث الناس سليمو العقل. لكن الوقت قد فات. كما توقعت، فالحصار أرغمه على البقاء في المعمل كل هذه الأيام، كما أن خطوط الهاتف قد قُطعت بسبب المعارك الدائرة. أخبرني ديدار بالمزيد لكني كنت باردةً كأنني أنتمي إلى عالمٍ آخر.

أخبرني أنه يتفهّم ضيقي، وأنه أعد العدة ليطلب من أبيه وأمه في العاصمة القدوم إلينا في الأيام المقبلة والبقاء لأطول فترةٍ ممكنةٍ. قال خجلًا: «سنخرج نحن الاثنان من هذا الضيق، سيشيعان السعادة في البيت، سترين».

كنت أتحرّق لإقفال الخط، فقد كنتُ بحق بعيدة، كنت قد رحلت قبل أن أرحل فعليًا، كمسافرٍ يعيش إحساس الرحيل قبل أن يصعد طائرته ويحلّق. لم تعد تهمنيَ الحلول التي ستُنجيني كما لم يعد يهمّني الحديث عن هذا العالم الذي سيكون فيه ديدار سعيدًا بصحبة زوجته وأبويه وابنته.

أركض، نركض

تقارب الساعة الرابعة بعد الظهر. قلبي يعتصر. أشعر بحجارة عالقة في جوفي، في المنتصف. أتذكّر من حيث لا أدري أبياتًا كاملة رغم أني من ضعف العقل والذاكرة الآن إلى الدرجة التي تمنعني من تذكر اسمي. أردد كما لو أني مُرغمة أبياتَ شعرٍ حفظتُها منذ زمنٍ بعيد، هي قصيدة لإميلي ديكنسون:

الألمُ يحمل قطعةً من الفراغ
تلك التي لا يمكن تذكّرها
متى بدأ الألم، أو هل ثمّة يوم
لم يكن فيه الألم موجودًا.
الوجعُ لا مستقبل له إلا نفسه،
مملكته المترامية اللامحدودة
تضمُّ ماضيه المهيأ
لاستقبال وإدراك
فتراتٍ جديدة من الألم.[1]

---

1 "Pain has an element of blank; It cannot recollect When it began, or if there was A time when it was not. It has no future but itself. Its infinite realms contain Its past, enlightened to perceive New periods of pain" (Emily Dickinson)

عليّ الهرب إذن، عليّ الابتعاد، هذا ما قلته لنفسي وأنا واقفة في منتصف دهليز منزلي حائرة من أين أبدأ الرحيل. رغم حيرتي كنت أكثر ثباتًا من المرة الماضية، أنا أخطط الآن بحكمة. دخلت غرفة النوم، كانت الطفلة تغط في نوم عميق، عرفت هذا من إيقاع تنفّسها، لم أتردد أبدًا في تركها خلفي، لأني قررتُ بفطنة أن أفعل عكس ما اعتبرته السيدة صوابًا. لن آخذ الطفلة معي، لا شيء بيننا ولست في صدد الحكم عليها. هي بنت أبيها وكفى.

ارتأيت على عجل إذن تركها كما هي وحرصتُ على ترك الباب مفتوحًا على مصراعيه. جارتي في الطابق الرابع لا بد ستسمع صراخها في وقتٍ ما، البناءُ فارغٌ وليس أسهل من أن تسمعها ما دامت ستلحّ الطفلة في البكاء. وربما يعود أبوها قبل وقته المعتاد، ستكون بخير لحين قدومه. أسعد أني أحتفظ بعقلي وأنا أتدبر موتي والسبيل الأمثل لحماية الطفلة. مادام عقلي مشرقًا ويعمل فلا يهم أين يأخذني، لا بُدّ أن أمتثل لخياره ما دام ليس هناك طريقة أخرى لإنقاذي.

ألقي نظرة على غرفة المعيشة، أتخيل ابنة ديدار تتجول فيها وتحضّر الطعام لأبيها. لا أنتمي لها، لا أنتمي لهم. ماف لم تكن حقّي يومًا كما اعتقدت عندما اخترت لها هذا الاسم، هي حقٌّ للحياة والحياة حقٌّ لها.

أخرج على عجل، إنها الرابعة إلا خمس دقائق. أنزل الدرج قفزًا. عقلي يحاور نفسه بنشاط. لا أمل من المواصلة هكذا. في البداية كان ثمة شيءٌ يقنعني بأن الوضع لن يسوء أكثر، كنت أسمع بدايةً همساتٍ ناعمةً تخبرني أن المقاومة ما تزال ممكنة. شيء ما شبيه بالأمل. نعم الأمل. يشبه الأمل أكثر الأشياء سوءًا في حياتنا، لكنه يرن رغم ذلك

بجرسه الجميل وهدوئه الساخر فتشعر حتى أثناء لفظك للكلمة بأن شيئًا جميلًا سيحدث: «الأمل». وبطبيعة الحال لا يحدث شيءٌ بالضرورة؛ إذ ليس للأمل سلطانٌ على الأحداث بل على شعورك حيالها. وبما أن شعوري يغلب في سوئه الأحداث التي مررت بها، بل لأقل إن مرارتي شعورية فحسب، صار الأمل كحبل إعدام حول رقبتي، لا يشنقني حتى الموت ويريحني، بل يبقيني معلّقة وعطشى.

أصل إلى المدخل الرئيس للمنزل، مدخلٌ طويل بجدران تشبه المرمر، منطقة ظليلة مدهشة والبرودة تحت قدمي تقرّبني من كل الأماكن الباردة التي زرتها، بيتي في المدينة قبل الحرب، غُرف نوم الأطفال في الميتم، الباحة الخلفية لبيت جدي في الريف، دهاليز ومداخل كثيرة متشابهة بفارقٍ واحدٍ أنها آخر الدهاليز التي تطؤها قدمي. عقلي مشرقٌ وأنا أخطط لموتي، لا شيء أجمل من عقلٍ مشرق.

أرى بعض العُمال يحملون الحجارة إلى القبو، لا بد أنهم استأنفوا العمل فيه بعد أن قررت شركة البناء تجهيزه لحالات الطوارئ والغارات المفاجئة، فقد اتضح أن هذه البلدة ليست بعيدةً عن الحرب كما كانت في السابق. لن أكون هنا حين تصطف دباباتهم أو تتأهب أسلحتهم أو عندما يحتفلون بنصرهم أو بهزيمتنا.

قبل أن أعبر الدهليز أصادف شابًا من العمال الذين يعملون على تجهيز القبو، أراه أمامي حاملًا حجارة، أتنحّى جانبًا لأفسح الطريق له. تبدو الحجارة ثقيلة، ظهور هؤلاء الشبان محنية بغير رضا، أنا في المقابل سعيدة، سعيدة أني تحررت -أو أكاد- من حمل المزيد من الحجارة.

لن أمشي بعد اليوم بجيوبٍ مثقلة بالحجارة.

الآن سينتهي كل شيء، لن أحتاج بعد اليوم إلى كلمات. أسوأ ما حصل هو الكلمات، كانت عائقًا على الدوام، سأتحرر من الكلمات أيضًا، سأتحرر من محاولات التفكير فيما يفكر فيه الآخرون.

هل سيكون جائزًا القول إني سعيدة ومشرقة إلى هذا الحد؟ ليس الأمر سرًا، طوال هذه الفترة التعيسة كنت أحنُّ للنزول إلى الأرض وكنت صادقة تمامًا، والآن تحين الفرصة، الشاحنة الخضراء ستأتي وفيةً في موعدها، والساعد الحاني للسائق يشجعني يومًا بعد يوم، سأنزل وألتصق بالأرض كما أحببت.

بعد أن يتجاوزني العامل حامل الحجارة ويصل إلى باب القبو يلتفت ناظرًا إليّ، أشعر بنظرته فألتفت، لا بد أنه يراني غريبةً في استعجالي ولهفتي، ومعه كل الحق، فقد خرجت حافيةً، ببيجاما رياضية صفراء اللون ولا يبدو أني اعتنيت بشعري الكثيف أو بوجهي. لا يزعجني أنه ينظر، لا بد أنه يتساءل عن السبب الذي يدعوني للخروج بهذا الشكل، ولكن لا بد أنه يرى في ذات الوقت السعادة الغامرة على وجهي. أعطيه ابتسامةً لا أعرف ما الذي يدفعني للقيام بذلك، ربما لأطمئنه، وأنطلق.

باب البناء مشرّعٌ ومفتوح على مصراعيه، إحدى أبوابه تبدو كمرآة عاكسة، ألمح نفسي فيها قبل خروجي، يستوقفني هزالي فاتلكأ لكني لا أتوقّف. أبدو كمن تلقّى ضربةً في بطنه فتقعّر من المنتصف بينما بقيت الحواف متماسكة. يبدو أني فقدت الكثير من وزني في لحظة واحدة، لا أذكر متى كانت آخر مرة وقفت فيها أمام المرآة لكني لم أكن يومًا بهذا الضعف والهزال.

أخطو خارج البناء فتنفذُ حرارة الخارج بسرعة من خلالي، حرارة تُبطئ خطوتي وتكبحها في البداية، أتراجع قليلًا ثم أنطلق.

الشوارع في الخارج تلتهم الحرارة التهامًا لا رحمة فيه، أتى الصيف هذا العام باكرًا. إضافة إلى حرارة الشمس فوق رأسي هنالك حرارة الإسفلت الطازج تحتي. قدماي الحافيتان تضغطان الأرض كضغط راقصةٍ لا تكاد تضع قدمها حتى ترفعها مجددًا. كلُّ شيءٍ مُنظمٌ وجميلٌ في الخارج، إني أرقص، أرقص لا من نيران الشارع الإسفلتي، بل من سعادة أني سأكف عن التشوش. ها قد خرجت، فعلتها أخيرًا. أشعر أن بي رغبة في الصراخ، في قول أيّ شيء لكني أصمت لأني أخاف القول فجأة.

أقفز، أركض، لمْ أرَ نفسي يومًا بهذا الوضوح والإشراق. أستعجل أكثر، أركض، أركض بقوة وأنا أضمُّ يدًا إلى صدري وأطلق الأخرى تتناغم مع حركتي. أزيد من سرعة خطواتي وأشعر كأني أرتفع عن الأرض قليلًا، أتماوج مع الحرارة كأني ريشة سنونوة. تلدغني نار الشارع ولكني أحب اللدغ، أشعر بحريةٍ لم ألمسها من قبل. مثل هذه القفزات لمْ أُقدم عليها مذ كنت طفلة صغيرة، حين كنت أعود مسرعةً إلى البيت وأشم وأنا لم أزل خارجًا رائحة الطعام الذي تُعدّه أمي. وحين أضرب باب البيت بقدمي ألقي حقيبتي المدرسية على الأرض وأُسرع. أسمع صوت أمي خلفي تطلب مني توضيب أغراضي وغسل يدي قبل الطعام، لكني أضحك ولا أُطيع. أحبُّ نفسي حين لا أطيع، ولذا فأنا أركض الآن. لا أرغب في أن أطيع، لا أريد أن أرتّب وأوضّب أغراضي، لا أريد أن أكون قيدًا ولا أن أتقيد. أُسرعُ الخُطى أكثر وأتعجّبُ من إمكانياتي في الركض. أشعر بهواءٍ عنيدٍ يضرب طرفي خاصرتي رغم حرارة الجو. في لمحة بصرٍ متناهية الصغر ألمحها، تركض هي أيضًا، بمحاذاتي لكن

مع حفظ مسافةٍ كافيةٍ بيننا. تركض بقوة، ويخشخشُ ثوبها الأسود الطويل الممتلئ بالهواء متحركًا بين ساقيها دون أن يعوقها. تزيد سرعتها مع زيادة سرعتي وتركض دون أن تلتفت إليّ. أركض، نركض، لا أحد غيرنا في هذه الظهيرة يحقق حُلم الفرس في داخله. تبدو كأنها مُجبرة على الركض. لا أعرف وجهتها. إنها المرة الأولى التي أرى فيها وجهها، ليس واضحًا كما يجب لكنه يبدو لي وجهًا يحمل هدوءًا ممزوجًا بمعاناة. أشعر أنها جامحةٌ كحصانٍ وتأخذني الرأفةُ بها، لأول مرة. لكني أتناساها ماضيةً نحو هدفي.

عليّ الإسراع، سأقطع هذه الطريق الإسفلتية الطويلة ثم أتجه جهة اليسار حيث سأفاجئ الشاحنة المليئة بالحجارة قبل أن تراني. سأفرّغ الحجارة من جعبتي قبل أن تُفرّغ الشاحنة حمولتها من الحجارة.

لم يكن بإمكاني التأكد من مجيء الشاحنة اليوم، لكني كنتُ واثقة من الصوت الذي سمعته، من النداء الذي ألهمني الخروج أخيرًا. كان صوتًا آمرًا لكنه حنونٌ ومُقنع، لم يشبه صوت المرأة-العقل، أو ربما يشبهه، لم أتمكن من تمييز ذلك في حينها. عندما سمعت الصوت يأمرني بالخروج والانتهاء لم أفكر في شيءٍ آخر. سيتحقق الأمرُ بأسهل مما توقعت، سنرتطم أنا والشاحنة مثل ارتطام جسدين في حركة الشهوة، لن أتمكن حتى من الشعور بالألم، وإن كان ثمة ألم، فسيكون ألمًا بلا ذاكرة، ألمًا لن يتذكّره أحد، خاصة الجسد الذي تحمّله.

دقائق، وربما ثوانٍ، وسيعود كل شيءٍ صفرًا: حساب الساعات صفرٌ، عدد الكلمات صفرٌ، دقات قلبي صفرٌ، أفكاري صفرٌ، المعاني صفرٌ.

«هكذا ينتهي العالم...
لا برجّة عنيفة، وإنما بنواحٍ خافت»[1]

صوت صريرٍ قويّ ومن ثم يشتعل ضوءٌ لامعٌ في رأسي شبيهٌ بضوء فلاش كاميرا احترافيةً.

جسدٌ إسفنجيٌّ يسقط بثقلٍ على الأرض، إسفنجة مُشرّبةٌ بالماء لأعوام، إنه جسدي.

ثمة عتمة لمْ أرَ مثيلًا لها في حياتي، عتمة مضيئة. تتقافز كائناتٌ صغيرةٌ هنا وهناك وأراها بعينَيْ عقلي. أشعر بتحرك وصوت زحفٍ وارتطام وصوت صفّارة بعيدة وصراخ رجل. يتبدى لي جسدي الضعيف غارقًا في رغوةٍ كثيفة، رغوةٍ حليبية تملؤني وتطفو خارجًا. أعرف أنه ما يزال بإمكاني تحريك ساعدي، فأسحبه وأحاول وضعه تحت جسمي. بدا كأن آخر واجباتي اتجاه نفسي هو أن أضم يديّ إليّ، بدت الحركة هذه من الأهمية بمكان إلى درجة أنني حاولت بكل ما أملك من قوة.

لم أشعر بألم، وقد لا أشعر به أبدًا، وكان هذا ما منيت نفسي به، ألا أعيش فظاعته، فحيث أكون أنا لن يكون الألم.

---

1 من قصيدة لـ ت. س. إليوت

أكاد لا أسمع شيئًا. كل شيء ثقيل ولكن لا شيء مخيف. أتوق لقول شيءٍ لا أعرف ما هو. أتخلى أخيرًا عن الكلمة في قناعةٍ تامة بعدم جدواها، أيًا كانت الكلمة. أضم يدي أخيرًا وأكتفي بوضعها لصيقة بجسدي. أشعر أن بي رغبة طاغية في البكاء، في الصراخ بصوتٍ عالٍ، لكنها تتقلص لنواحٍ خافتٍ مكتوم.

يعمُّ الهدوء بدخولي إلى نفق عتمةٍ لا نهائية.

يعود الماء إلى صفائه.

منظارٌ مكسور!!

بريقٌ رفيع، ما إن يلتمع في وجهي حتى ينشطر رأسي إلى قسمين، ألمٌ حادٌّ في جبهتي ورأسي والبريق الرفيع يتراقص. لا أميز شيئًا ولا أدرك ذلك إلا حين أبدأ بتمييز الأشياء، ما يعني أني أحس أن العالم بدأ للتو. لكنه عالمٌ هلاميٌّ يضغطني إليه دون أن يتمكن من ابتلاعي. لا أتقمص أحدًا كأني لم أولد بعد ولا أشعر أني معنية بالأصوات والحركة التي أسمعها تجري من حولي.

أنا ثابتةٌ في مكاني لكني أدور. ثمة مرارةٌ فظيعةٌ في فمي تغالب آلام رأسي.

تلاشت الضوضاء.

عادت الضوضاء، وشعرت أني أسير مستلقيةً على ظهري فوق شريطٍ متحرك. لا اهتزازات، هذا يدل على أنه دوار. أستطيع تشخيص حالتي وأنا نصفُ ميتة.

ثمة يدٌ كبيرةٌ تلمس وجهي. بدأ وعيي بالعالم من جديد من خلال جسدي. إنها يدٌ قاسية، لا تعرف كيف تلمس وجهًا. تروح وتجيء فوق جبهتي، تحرك معها حاجبيّ بكثيرٍ من الإهمال.

أفتح عينًا واحدة. أميز ديدار، ثم أغيب.

استيقظت. أعطاني ديدار ماءً لأشربه، وجلس على حافة السرير كمريض. يبدو ضئيلًا وفاتر الهمة كشيخ يئس من الحياة. لا أعرف أين أنا ولِمَ يفعل هذا، أغط في النوم من جديد. أستيقظ في وقت آخر، أميّز ديدار على كرسيّ قبالتي، إلى جانبه زوجة أبي التي انقطع التواصل بيني وبينها منذ سنوات. أغمضُ جفني من جديد وأشعر أن يدًا تسحبني إلى الأسفل، أتذكر أني تركت ماف وحدها في السرير، أتذكر حرارة الإسفلت والريح الخفيفة في جنباتي، أشعر بالحنق مصحوبًا بالخزي. يدخل رجلٌ بثيابٍ بيضاء، لا بد أنه ملاك. ليس بإمكانهم إعادتي بسهولة. يقول الملاك بالثياب البيضاء: «لقد استيقظنا إذن!»، ويبتسم كأب.

أود أن أطلب منه أن يبقى، لكني أعجز. يخرج الملاك.

لا أعرف كم من الوقت مرّ وأنا في المشفى. لديّ جروحٌ كثيرةٌ وكسرٌ في الحوض والساقين.

لن أقول لهم ما جرى، إن كان ثمة مغفرةٌ لي وأنا ميتة فلا أحد سيغفر لهذه المجنونة وهي حيّة. لكني أعلم أن كل ما حصل قبل هذا سيُصنّف في إحدى مراتب الجنون، ولا مغفرة إذن. فحتى إن لم أقل لهم ما حصل سيحاصرونني بالكثير من الشكوك حول خروجي من المنزل، وتركي للطفلة في سريرها وحيدة، وترك الباب مفتوحًا. ورغم وعيي بفظاعة ما ارتكبت إلا أن قوةً أخرى فيّ واستني قليلًا بدفع كل هذه الأسئلة المنطقية التي تنتمي إلى عالم الناس الأصحّاء إلى الخلف. إن كان ثمة خلل ما بي - وأنا متأكدة منه- فعليهم البحث معي عنه، عليهم مساندتي، أما إلقائي في البئر وإنكار البئر بعد ذلك فلا يفيد أحدًا.

إن فخ الألم النفسي هو أنه يحوّل الألم إلى معنى، إلى قيمة، فلا تستطيع بعدها اقتناص أيّ من حقائق الحياة إلا عبر المنظار المكسور لألمك. وتصوّرْ ما سينقله لك عن العالم منظارٌ مكسور!!

لكن ما دمتُ أُعطيتُ فرصةً أخرى، لن أعترف بانقسام العالم بعد اليوم، العالم هو ما أراه وما أحسّه، لا ما يُقال لي عنه. سأكون مَن أكون وسأسدّ أذني عن سماع كل ضجيج الآخرين، «لن أُرغمَ على رؤية الأشياء كما يريد كل شيءٍ وكل شخصٍ أن أراها، مهروسةً وممتزجةً في حساءٍ واحدٍ لا شكل له! لن أستسلم!»[1]

أقول:

- أين ماف؟
- في أمان. يقول ديدار.
- كم يومًا مضى منذ أن غبت عنها؟
- أيام قليلة.

أصمت. لم يعد شيءٌ كما كان.

النهاية

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

1 من رواية ألبرتو مانغويل «عاشق مولع بالتفاصيل»، بتصرف بسيط.